موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

الرد على كتاب بدع حديثة

الكتاب الثاني

www.coptology.com

Coptology
Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

الرَّدُ عَلَى كِتَابِ بِدَعٍ حَدِيثَةٍ

الكتاب الثاني

حقيقة وجوهر ما يُشاع باسم العقيدة الأرثوذكسية
في كتاب "بدع حديثة" للأنبا شنودة الثالث

هل هذه بدع؟
وهل هي حديثة؟

دكتور
جورج حبيب بباوي

فبراير ٢٠١١

www.coptology.org

جدول المحتويات

مقدمة الكتاب: رسالة للقمص متى المسكين ٦

تقديم: نداء إلى الأرثوذكسيين الحقيقيين ١٤

رسالة الأب متى المسكين بعد قرابة ٤٠ عاماً ١٥

الباب الأول ١٧

الفصل الأول: أثر سيادة الأدب الشعبي على عناصر التكوين العقيدي الأرثوذكسي (التاريخ الكنسي والعقيدة والكتاب المقدس والآباء) ١٨

ماذا نقصد بسيادة الأدب الشعبي؟ ١٨

التراث المسموع الذي لم يوضع تحت مجهر البحث ٢٢

أخطار الأدب الشعبي على الحياة الكنسية ٢٣

أمثلة على سيادة التراث الشعبي المسموع ٢٦

الرتبة الأسقفية ليست هي المرجع ٢٩

من هو مدرس آباء الكنيسة في الكلية الإكليريكية؟ ٣٢

من هو الذي ينشر تراثنا القبطي؟ ٣٥

يلعن الغرب بينما هو تلميذ وفيٌّ للغرب ٣٦

الفصل الثاني: العودة إلى المنهج الكنسي الأصيل، هل هي جريمة؟ ٤٠

معرفة الحق من التاريخ والآباء ٤١

لماذا غابت كتابات الآباء عن المؤلفات القبطية المعاصرة؟ ٤٤

مأساة الدكتور القس صموئيل وهبة ٤٤

تأخر حركة الترجمة في مصر وقضية دراسة التراث ٤٧

التراث والممارسة ٤٨

المعرفة الكنسية الصحيحة هي السلطة الحقيقية ٤٩

القمص متى المسكين كظاهرة مصرية ٥١

المنهج والمعطيات ٥٢

وثائق التاريخ والإيمان بالمسيح ٥٤

التقديس بالروح القدس ٥٩

النتائج: ٦٠
الفصل الثالث: ثلاثة أمور حاضرة، وثلاثة أخرى غائبة ٦١
١- الثلاثة الحاضرون معنا ٦١
أولاً: تراث السماع ٦١
ثانياً: دورات الأكاذيب ٦٢
ثالثاً: شيطنة *Demonization* الآخر ٦٤
٢- الثلاثة الذين غابوا عنا ٦٧
أولاً: تجسد ابن الله يسوع المسيح ٦٧
ثانياً: الكنيسة جسد المسيح ٦٩
الرأس والجسد ٧٢
ثالثاً: الحياة الأبدية ٧٤
نتائج غياب الوعي بالكنيسة كجسد المسيح: ٧٦
الفصل الثالث: لاهوت الأسرار (μυστηριον) ٧٧
كلمة سر في العهد الجديد ٧٧
الإفخارستيا سر التقوى المعلن بالروح القدس ٨٠
موجز لمعاني كلمة "سرّ" عند الآباء ٨١
الرموز لعمل المسيح هي سر التدبير ٨٢
رؤية الشرق الأرثوذكسي للأسرار ٨٣
عودة إلى منهج البحث ٨٥
الفصل الرابع: سرَّي الرهبنة وصلوات الجناز حسب كتاب "رئاسة الكهنوت" لديونيسيوس الأريوباغي ٨٦
سر الرهبنة *Mysterion* ٨٧
لماذا اعتبر ديونيسيوس "الرهبنة" سراً من أسرار الكنيسة؟ ٨٨
سرّ *Mysterion* الذين يرقدون في التقوى ٩١
الأرقام لا تحدد الأسرار الكنسية ٩٢

الفصل الخامس: سرّ غسل الأرجل في العلية حسب تسليم الكنيسة الأرثوذكسية وكما شرحه الأب متى المسكين ٩٤
أولاً: ماذا نتعلم من طقس اللقان ٩٤
ثانياً: شرح الأب متى المسكين: ٩٥
الفصل السابع: الأسرار الكنسية في تاريخ ولاهوت الكنائس البيزنطية الأرثوذكسية ٩٧
الخلفية التاريخية للتعليم الخاص بالأسرار السبعة ١٠٠
الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ١٢٥٨ – ١٢٨٢م..... ١٠٠
اعترافات بطاركة الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية بالإيمان وبالأسرار الكنسية..... ١٠٢
الوثائق التاريخية ١٠٢
فوتيوس بطريرك القسطنطينية ١٠٣
مجمع القسطنطينية ١٠٥٤..... ١٠٣
غريغوريوس بالاماس ١٣٥١م ١٠٣
حاشية على موضوع الشركة في الطبيعة الإلهية..... ١٠٤
مرقس مطران أفسس ١٤٣٩م..... ١٠٥
أولاً: أباد الرب يسوع الموت ١٠٥
ثانياً: التقديس أو التطهير بالروح القدس ١٠٦
ثالثاً: الشركة في الطبيعة الإلهية..... ١٠٦
الأنبا شنودة الثالث وتعليم حركة الإصلاح..... ١٠٧
البطريرك أرميا الثاني بطريرك القسطنطينية ١٠٩
ملاحظات على نص البطريرك أرميا الثاني ١١٠
عودة إلى المنهج والمعطيات والنتائج ١١١
الباب الثاني..... ١١٢
الفصل الأول: الأسرار في لاهوت العصر الوسيط أو اللاهوت المدرسي في الغرب...١١٣
بطرس لومبارد وهيو الفكتوريني ١١٣
بطرس لومبارد ١١٤
ما يجب أن نعرفه عن اللاهوت المدرسي أو لاهوت العصر الوسيط ١١٤
الأسرار الكنسية عند بطرس لومبارد..... ١١٦

تعريف السر عند بطرس لومبارد ١١٧
نص بطرس لومبارد ١١٧
النصوص التي وردت عند القديس أوغسطينوس واعتمد عليها لاهوت العصر الوسيط في تحديد السر ١١٩
أولاً: كتاب "مدينة الله": ١١٩
ثانياً: كتاب "العقيدة المسيحية: ١١٩
القصور الظاهر في تعريف السر عند بطرس لومبارد ١٢١
تعريف السر عند هيو الفكتوريني ١٢٣
ما هو غائب من التعريف بالسر؟..... ١٢٤
لماذا أُسِّسَت الأسرار؟ ١٢٦
الأسرار الثلاثة اللازمة للخلاص ١٢٦
الأسرار الأخرى حسب هيو الفكتوريني..... ١٢٧
تعليقٌ على النص ١٢٨
الفصل الثاني: عدد الأسرار في مجامع الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط ١٣٠
أولاً مجمع ليون Lyons الثاني ١٢٧٤م..... ١٣٠
الآثار السلبية للشرح القانوني للعقيدة المسيحية ١٣٤
ثانياً مجمع فلورنسا FLORENCE..... ١٤٠
مجمع فلورنسا والكنائس الشرقية الأرثوذكسية..... ١٤١
المجمع والتعليم بالأسرار السبعة ١٤٢
الفصل الثالث: عدد الأسرار وما هي البدعة الحديثة؟..... ١٤٤
شيطان الغرب مرة أخرى ١٤٦
وأخيراً ١٤٧

مقدمة الكتاب

رسالة للقمص متى المسكين[1]

إلى الإخوة المحبوبين الأعزاء بالرب أعضاء بيت التكريس.

لكم سلام من الرب، ولتحل عليكم نعمته ولترافقكم رحمته أينما كنتم وإلى مدى الأيام، حتى تكملوا سعيكم معنا لنُوجد جميعاً في وحدة الصليب وفي عزاء شركة آلامه إلى أن نبلغ إلى قياس القيامة الذي به نؤهل للعبور.

ليس مخفياً عنكم ما نجوزه من الآلام والضيقات، لأنها وإذ أصبحت شديدة صارت جديرة أن نفتخر بها بسبب العزاء المتكاثر جداً الذي حصلنا عليه والفرح الثابت الذي نبع من أعماق المرارة فجأةً، الذي جعلنا وكأننا في حفلة عرس عشاء الخروف، واختفى الحزن من قلوبنا والتنهد ليحل مكانهما سلام واطمئنان، وتعرفنا على الآية القائلة: "ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم" (يو ١٦: ٢٢).

لقد اندهش يسوع لما رأى القادمين للقبض عليه رافعين سيوفاً مع عصي!! "كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعصي" (مت ٢٦: ٥٥). لقد استدرجوا يسوع لمعركة بسيوف وعصي بعد أن عجزوا نهائياً أن يستدرجوه بالمحاجاة واصطياد الكلام! ولكن الرب لا يُحارب الناس!!

الدنيا تستدرجنا أن ندخل المعركة على نفس القياس، ولكن نحن لا نحارب الدنيا. نحن في معركة الدنيا في صميمها، ولكننا لا نحارب أحداً. لقد بلغنا نهاية ما تريده الدنيا فينا، لقد متنا! ووضعنا في أنفسنا حُكم الموت نهائياً!!

---

(١) كتاب "رسائل القمص متى المسكين" الرسالة رقم (٧٤) "رسالة لأعضاء بيت التكريس عام ١٩٦٠م" الطبعة الأولى ص ٢٦٦ – ٢٧٤ مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون.

السيوف أسلحة جُعلت للهاربين من الموت أو من الحق أو للذين يشتهون الدنيا أو يخافون منها، أما المائتون فالسيف فيهم لا يعمل ولا يجوز!! والذين يعيشون للحق تتكسر عليهم سيوف الدنيا، وتنقضم سنانُها وتتلف مقابضها وتنهد السواعد التي تُحركها، والذين هم للحق هم كما هم، لأن الحق الذي وجدوه لا ينثني ولا ينكسر، وقوة الإيمان تُذيب سلطان الإنسان.

ولكن مع كل ذلك نحن لا نشعر قط أننا نحارب أحداً ولا أحد يحاربنا، لأننا نحن صرنا نحيا مائتين عن الدنيا، وبالتالي عن سلطان الناس!! والذي يعيش تحت سلطان الحق لا ينظر أعمال الناس ولا يدينها، فهو يشفق على حاملي السيوف وحاملي العصي، ويرى أنهم يتلفون بها قلوبهم ويلوثون بها أيديهم، لأنه تأتي ساعة يعرف فيها حامل السيف والضارب به أنه أتلف لا نفسه فقط بل والكنيسة أيضاً. ويا للحسرة ويا لألم الضمير المحض حينما يكتشف الإنسان أنه بسلاح الحق نفسه اضطهد القديسين وأذل أولاد الله، وبكف القانون المحترم كان يلطم وجه الرب مراراً، دفاعاً عن كرامته أو كرامة آخر، كما حدث في محاكمة الرب!!

ولكن مع ذلك، وإذ نشعر أننا قائمون في صميم معركة الدنيا، لا نشاء قط أن نخرج منها، لأننا نعلم يقيناً أنها لابد أن تسير ولابد أن تبلغ الغاية، ونحن جزء لا يتجزأ من الطريق ومن الغاية، ولنا فيهما حياة!

نحن لا نُخفي وجوهنا من اللهيب ولا نفزع، لقد جعلنا وجهنا كالصوان وعرضناه للبصاق واللطم، لا لأننا شُجعان فالشجاعة قساوة على صورة ما، ولكن لأننا لم نعُد بعد نعيش على صعيد الناس. لقد جمدت عيوننا في مآقيها فلم تعُد تتحرك بالبكاء على ما يبكون ولا ترى رُعباً فيما يرون، لقد شخصت أبصارنا إلى المذبوح على الصليب، فثبتنا وجهنا اليه ولا نريد أن ننحصر حتى نبلغه.

كل ما كنا نبكي عليه أو منه صار لنا وسيلة لبلوغ أمانينا، ونحن لا نريد أن نرتد عن الدنيا حتى نغلبها بحبنا ولا نشتهي منها إلا أن تصلبنا.

كنا نتضايق جداً فيما سبق من الضيقات، ولم نكن ندري أن النعمة كانت هي التي تدفعنا إلى ذلك، فكنا نرى – خطأ – أن مُهاجمات بعض الناس لنا تُتلف أنفسنا أو تُتلف سعينا أو تعوق سيرنا، فكنا نخرج عن صوابنا وكنا ننظرهم أعداء لنا ممعنين في العداوة، فكانت الضربات تتخذ في بدايتها عنفاً وشدة يطيحان بالتفكير الرزين المتزن، فنقعد زمناً في حالة غير مثمرة روحياً، جانحين إلى الشك المخيف من الناس ومن أنفسنا ومن هول الطريق، وكان هذا غاية ما يتمناه عدونا المنظور وغير المنظور. ولكن كانت النعمة ساهرة علينا كما يسهر الطبيب على مريض برَّح به الميكروب العنيد، وكان العلاج الذي قدمه لنا الله آخر ما قدم لنا هو أن دفعنا إلى ضيقة أشد!! فتركنا نتضايق إلى أقصى ما يُمكن أن تكون الضيقة إلى الحد الذي بعده لا تُسمى ضيقة بل موتاً!! إلى أن انكشف الوعي الإلهي فينا أخيراً، وفي لمحة الروح اكتشفنا خطة العدو التي كانت كامنة في أعماقنا والتي من أجلها تركنا الرب نتضايق كثيراً، إذ من بغضة وغضب وحقد وعداوة، وتحققنا على نور عدل الله أن هذه البلوى متعادلة تماماً مع ما فينا، ككميَّتين متعادلتين، وكلا الكميَّتين يتساوى مع الموت الأبدي وهلاك الروح، فكانت لحظة الإكتشاف لحظة الرعب إذ تحققنا أننا ضائعون ورأينا الموت والهاوية، وفي رعبنا استيقظ الإيمان فجأة، فصرخنا من كل كياننا، فكان لطف الله وكان العبور.

وكان عبورنا شاقاً مريراً، إذ في لحظة ما اكتشفنا ما في أنفسنا صرنا غير راضين عن أنفسنا، ولكن كنا في حالة أكثر بكثير من عدم الرضا على أنفسنا، كنا لائمين لها بل كنا مؤنبين وموبخين بشدة عظيمة، صرنا في عداوة مُرة ونزاع مع أنفسنا، جحدناها جحداً وأنكرناها إنكاراً وتبرأنا منها أمام الله!! إذ بدت لنا وكأنها خدعتنا، وذُهلنا لما وجدناها تتمرغ في الحق وتتنمر للإنتقام وتستريح على تصورات الشر وإفساد الناس، فعلمنا يقيناً أن العدو الشرير أصاب منها مقتلاً، بل أحسسنا أننا مقتولون، ورأينا بعين النفس أبواب الهاوية مفتوحة والشيطان يستعد لإبتلاعنا.

لقد تيقظ الوعي الروحي فجأةً في هذه اللحظة المرعبة، ورأينا أنفسنا في شبكة الموت، وأدركنا في حسرة وشبه يأس مهارة عدونا الخفي كيف أحكم الإقفال منذ زمن بعيد، فوقفنا لحظة في حيرة مرة هي حيرة الموت. وكالفأر الذي ضُبط في مصيدة قاسية يخبط رأسه في كل قضيب، هكذا كُنا حتى أصابنا الدوار، وعبثاً حاولنا الإفلات لأننا كُنا نريد أن نفلت بأنفسنا لا منها!! ومصيدة الدنيا مصيدة قاسية تطبق على النفس ولا تتركها، هي مُحكمة لا تُكسر قط ولا يُفتح بابها، وكل النفوس التي تقع فيها كُتب عليها الضياع إلى الأبد. لقد نسجت قضبانها حولنا في سنين كثيرة، هي عُمرنا كله، وقضبانها من الإنسان ذاته وفي جسده مغروسة، فكيف الإفلات؟

ولكن بالإيمان صرخنا، والإيمان يفوق الدنيا ويفوق الجسد، لقد عبرنا المصيدة لما جحدنا النفس وعبرنا فوق أحاسيس الجسد وشهوات الدنيا.

ولكن لم يكن عبورنا سهلاً، بل كان تمزيقاً لأنفسنا، لقد حطمنا المصيدة لما حطمنا النفس وصلبنا الجسد، وخرجنا بأرواحنا أحراراً فوق مصائد الدينا وفخاخها إلى عالم الله والروح. وكان ذلك العبور في لحظة قصير يكاد الزمن لا يحصرها، فأقوى التجارب الروحية لا تستغرق إلا أقل الزمن، والعبور من الموت إلى الحياة لا يُمكن قياسه زمنياً.

لقد تلاشت من أرواحنا مناظر الناس الذين ضايقونا وأسماؤهم بل وكل العلل التي كانت سبباً للضيقات، فلم يبقَ أمامنا في لحظة العبور ولا ما بعدها إلا ما اكتشفناه في أنفسنا من وجود أسباب الموت والهلاك كائنة في صميم كياننا.

لقد عبرنا، ولكن لا تزال لحظة العبور ماثلة في أعماقنا الباطنية تعمل فينا عملاً مستمراً، لتلغي من ذهننا كل ما هو خارج عن حقيقة الموت الذي كان قائماً فينا بالخطية وحقيقة الحياة التي صارت لنا برحمة الهنا، حتى تبقى فينا فقط صورة واقعية ملموسة لعمل الخطية وفضل الضيقة ورحمة الله، فستظل هذه الصورة المثلثة بمثابة الظهير أو السند أو نقطة إنطلاق لنا مستمر نحو الله.

أما الراحة والسلام والفرح وهدوء النفس الذي صار داخلنا فهو شيء لا يُمكن التعبير عنه، هو عميق، أعمق من الألم الذي أصابنا، ومتسع الأثر في كياننا أكثر من انتشار تأثير الألم في نواحي الجسد كلها والنفس، ولكن فوق ذلك كله ثابت الأثر، يكاد لا تصيبه بعد هزات الذكرى الأليمة للحادثات التي صدمتنا، ولا تنقص منه قسوة الوجوه التي تسببت في هذه المحن المتوالية، وهو في تعبيرنا النفسي يشبه الإنتقال، ولو أننا لم ننتقل ولم نعرف بعد ما هو الإنتقال.

ولكن هذا الشيء، الذي كله راحة وسلام وفرح وهدوء نفس، ليس هو السبب الذي جعلنا ننسى الضيقة والمضايقين لنا، فالراحة وما يتبعها من سلام أرخص من أن تكون سبباً لنسيان الضيقات ووسيلة أضعف من أن تمحو من الذاكرة والوعي والقلب والضمير صورة المضايقين لنا ومنظر قسوتهم.

نحن نسينا الضيقات لما فهمنا القصد منها وعرفنا مصدرها الإلهي الحكيم ولمسنا غايتها الخَيِّرة الصالحة المفيدة.

ونحن لا نقول إننا إننا نسيناها بمعنى عدم الإكتراث أو الإهمال، بل هو نسيان بمعنى التحرر الكلي من ربقة الوقوع في قلقها وخباطها وبلبلتها، هو تسامي العقل الباطن من تأثيراتها الضارة وإثاراتها المفسدة للنفس، وكل ذلك بعمل النعمة الفائق الحد.

كذلك نحن نسينا أشخاص جميع مضايقينا، وإنمحت من المخيلة نهائياً ودفعة واحدة الصورة القاسية التي كانت تلازم وجوههم وكلماتهم وحركاتهم وتبدلت بصورة ذات معنى إلهي، وامتزجت كلماتهم وحركاتهم وأفعالهم بصورة وجه الرب الذي حركهم سابقاً بما لا يشاءوا هم ليعملوا فينا أو لنا أو ضدنا ما لا يريدون لتكميل خلاصنا وانعتاقنا من الهلاك الأكيد الراصد لنا في داخلنا.

ونحن لا نقول إننا نسيناهم بمعنى التجاهل أو عدم الإعتبار، وإنما بمعنى نسيان صورة العداوة التي التصقت في مُخيلتنا وضمائرنا عنهم خطأ، بسبب ماضينا من خطية

وعيب ذميم، وذلك حينما أدركنا الدور الخطير الذي أدوه نحونا مسوقين بالنعمة، وتأكدنا من الرسالة الإلهية التي أكملوها فينا لحياتنا، وإن كانوا لا يدرون.

إن النتيجة التي بلغنا إليها على أيديهم من خلال اضطهادهم لنا والتشهير بنا والتعريض بسمعتنا والكيد لنا خفاءً وعلناً، هي نتيجة فوق ما كُنا نحلم به أو نرجوه، مما يجعلنا نُقبِّل هذه الأيدي بدموع ونبارك اليوم الذي وُشي بنا لرئيسنا كذباً وطُردنا بلا رحمة ظُلماً وخرجت أسماؤنا في الجرائد بفضيحة، لأن في ذلك كله كُتب لنا النجاة من الموت والهلاك الذي كان يترصدنا في داخلنا الذي مدَّ فينا جذوراً عتيقة وكان يُغذي أنفسنا باسم الحقد والغضب والعداوة، والبغضة سيدة الخطايا.

لم تنفعنا سابقاً الضيقات الخفيفة التي كانت تصيبنا لما كُنا بين الناس متسترين بسمعتنا الطيبة، لأننا كُنا مهرة في الخروج من المآزق والضيقات دون أن نواجهها، دون أن ندرك أنها لنفعنا، دون أن نكتشف أنه كان لنا فيها حياة وخلاص، فكانت تعبُر الضيقات أو نعبُر نحن عنها دون أن نستخلص منها قصدها، إلى أن سمحت محبة الله الحانية واستُعلنت لنا رحمة القدير في صورة ضيقات وآلام خصوصية بعد أن فرزنا الرب وحدنا حتى لا يكون مناص في مواجهتها، وأثقل التجربة وصعَّب الضيقة وأضرم النار ونفخ فيها وحاصرنا حتى لا يكون إفلات، فكانت المعجزة، معجزة حياتنا التي نحملها في كياننا شهادة لرحمة الله.

الآن أدركنا معنى "لا ينزع أحدٌ فرحكم منكم"، لأننا أخذنا الفرح من عمق الضيقة، من عمق الألم، من وسط جفاوة الموت خرج فرح الحياة، فمن ذا يستطيع أن ينزع فرحنا منا؟ هل بضيقات أكثر؟ هل باضطهادات أوفر؟ هل بالألم الشديد الذي يبلغ حد الموت؟ هذه كلها جُزناها، ومنها بذاتها ينبع لنا الآن فرحنا.

ربما الذي ينزع منا فرحنا هو المديح والإكرام، ربما الراحة والصحة وكثرة السلام، ربما السلطة والرئاسة والمال، لأنها تلهينا عن أنفسنا، أما الآلام والضيقات فلم تعُد تستطيع!!

ربما أصدقاؤنا وأهلنا والعاطفون علينا ينْزعون منا فرحنا، لأننا ربما نُخطئ فنتكل عليهم أكثر من نعمة الله فتفارقنا رحمة الله. أما المعاندون لنا، أما الراصدون لحركاتنا المتصيدون لأخطائنا المخترعون علينا شروراً، فلا يستطيعون لأنهم صاروا لنا مصدراً إلهياً بسياق النعمة نستمد منهم تنقية ضمائرنا وكشف هزات قلوبنا وقياس أعماق حبنا أولاً بأول.

لقد تكشفت لنا حقيقة الإنجيل "أحبوا أعداءكم"!! لا يُمكن أن يُحب الإنسان إنساناً آخر إلا إذا تحقق منه منفعة ما، وأما نحن فقد رأينا ونشهد أنه لا منفعة تُرجى من إنسان قط إلا إذا تسبب لنا في كسب الحياة الأبدية، في كسب الله، في كسب الحق وإعلانه والتمسك به. أعداؤنا هم الوحيدون الذين يُهيئون لنا ذلك، إذ يجعلوننا نكتشف باستمرار عيب ما فينا، نكتشفه لا بالمعرفة أو بالنصيحة أو بالإرشاد، بل بالخبرة الحية بالمواجهة!! لأن تضييقهم علينا وتعييرهم ومذمتهم واتهاماتهم وتجنيهم هي بمثابة المثيرات الحقيقية التي تكشف كوامن نفسنا ومبلغ ما فيها من الحياة أو الموت!

أعداؤنا هم الوحيدون الذين يجعلوننا نواجه طبيعة الخطية الرابضة في القلب، هم في الواقع لا يفضحوننا بل يفضحون لنا عيوبنا، هم لا يعرقلون سيرنا إلى الملكوت بل يكشفون عيب مسيرتنا، هم ليسوا عثرةً لنا في سعينا نحو الحياة الأبدية بل هم بسعايتهم لنا يسعون من حيث لا يدرون لتنبيهنا إلى العثرات التي تعترض طريقنا. فكيف ندعوهم أعداء؟! وحتى لو تصوروا هم أنفسهم كذلك بالنسبة لنا، فنحن لا نعتبرهم في حقيقة صلتهم بنا إلا أحباء!

هم آخر من يودعنا في الطريق الضيق، إنهم يطاردوننا بلا هوادة حتى لا نضرب خيمتنا على الطريق أو ندق أوتادنا في أرض الشقاء.

مَن من أصدقائنا يستطيع أن يفعل هذا أو بالحري يحتمل أن يُفعل فينا هكذا؟ إن قساوتهم قد حصلت لنا جزئياً لنربح بهم العبور، إن الحنان واللين ضد خلاص الإنسان، والرفق والإشفاق بالنفس عدو لها ومُميت.

مَن من الأصدقاء أو الناصحين أو من الآباء الروحيين والمرشدين يستطيع أن يضيق علينا بالإضطهاد والإذلال والتشهير والفضيحة حتى نكتشف عيوبنا تماماً أو بالحري نكتشف موتنا وهلاكنا؟

إذن، فلو وُجد عدو لنا فهذه مِنَّة، وبقدر ما اشتد بأسه بقدر ما انفضحت لنا عيوبنا، فيتحقق لنا العبور!

أما إن صار عدونا صاحب كل البأس وكل السلطان وكل القساوة، وصرنا نحن عدماً ولا حوْل لنا، فهذه فرصة الغلبة الأكيدة على العالم وكل ما فيه "كمائتين وها نحن نحيا" (٢كو ٦ : ٩).

والغالب يعطف دائماً على الذي تسبب له في الغلبة "أحبوا أعداءكم"!!

يا إخوة لقد تحولت الآلام والضيقات كلها إلى معاني إلهية، نحن تضايقنا للغاية حتى نستطيع أن نعزيكم معنا، لذلك كتبت إليكم لتشتركوا في أفراحنا. اقبلوا الآلام، واجهوا الضيقات، اكتشفوا حياتكم فيها حتى تستطيعوا أن تعزُّوا الآخرين.

كونوا معافين باسم الثالوث الأقدس.

أخوكم في الضيقات القمص متى المسكين ١٩٦٠م

تقديم

نداء إلى الأُرثوذكسيين الحقيقيين

لم يكن الكتاب الأول في الرد على كتاب "بدع حديثة" للأنبا شنودة كافياً في عرض الأساس التاريخي، الذي يدور عليه البحث والحوار، هذا إذا كان هذا الحوار ممكناً أصلاً في ظل أجواء التسلط والاستفزاز وإصدار الحرمان لكل من يسأل أو يعترض أو يطلب الدليل.

وإذا كنا نقول – في اعتزاز – إن الكنيسة القبطية هي كنيسة تقليدية، فإن هذه العبارة تكون على غير أساس بدون العودة إلى التاريخ الكنسي العام، والقبطي بشكل خاص.

ولذلك فإن الاجتهاد في الشرح وطرح الآراء ونشرها هو العمل المطلوب، لكن الانقضاض على الباحثين، والدارسين، بواسطة أشخاص لا يملكون من الكهنوت سوى زِيٍّ ولقب، لا يسمح بترسيخ هذا الاعتقاد، بل ويلف الحياة الكنسية القبطية بمزيد من ضباب الشك والارتياب، خصوصاً وأن من بيدهم الأمر من هؤلاء الأشخاص لم يدرسوا حتى المبادئ الأولي للأرثوذكسية، تلك المبادئ التي نراها ونلمسها في ما استقر في التراث الكنسي عبر العصور، وما دُوِّن في كتابات الآباء، بل وما تحفظه الليتورجية في صلواتها: المعمودية – الميرون – الإفخارستيا، وباقي الصلوات الخاصة بالسرائر الكنسية ... هؤلاء تشهد عليهم مقالاتهم، وكتبهم، وشرائط الكاسيت التي يروجونها، أنهم لا يملكون سوي العبث بالكلمات وخداع السامعين، والكذب باسم العقيدة الأرثوذكسية، بل وبلغ بهم الإسفاف حد اختراع مصطلحات جديدة مثل: تعليم منحرف – شطط عقيدي – نقلٌ عن الغرب... إلى آخر هذا الخداع، في محاولة منهم لقتل روح البحث والدراسة حتى تخلو لهم الساحة.

ومن جهتنا يمكننا أن نؤكد أنه ليس في الأرثوذكسية تعليمٌ يمكن أن يُوصف بأنه منحرف. فالتعليم إمَّا أن يكون تعليماً أرثوذكسياً، أو هو تعليم "هرطوقي"، ولكن لا يوصف تعليم ما بأنه "شطط عقيدي" وما إلى ذلك من أوصاف تُطلق لإرهاب الجهلاء، والسذج، ولخداع الغوغاء من جماهير تُساق بأسلوب "الحكم الشمولي". وكل ذلك من أجل الدفاع عن زعامة فاشلة، لجأت إلى العقيدة بعد أن أغلقت أمامها القيادة السياسية الشرعية أبواب الزعامة، فلجأت إلى الكنيسة تتحصن فيها علَّها تجد في ذلك الحصن التاريخي المقدس والشريف ما يعطي لها هذه الفرصة.

لكن من داخل هذا الحصن بدأ الهجوم على الأب متى المسكين، وعلى كاتب هذه السطور، وغيرهما. وهو هجوم يعرف الشرفاء والمتعلمين أنه هجوم الجهل على المعرفة، ولذلك كان سلاحهم الكذب والخداع في أمور – أقل ما يقال فيها – أنها تعلو على كل ما هو محترم وشريف، تلك هي الأمور الخاصة بالإيمان، وبالعقيدة الأرثوذكسية نفسها. لأن "إفساد" الإيمان هو "عمل شيطاني"، وزرع الشكوك باسم "مؤامرة الغرب"، و"باسم البروتستانتية" هو ذات الأسلوب الجماهيري الخاص بجماعات الإرهاب، الذي لا يختلف إلاَّ في توظيف الأسماء فقط. فالإرهاب لا يملك إلاَّ إطلاق الأوصاف إشاعة للخوف وبثاً للرهبة.

رسالة الأب متى المسكين بعد قرابة ٤٠ عاماً

عندما كتب الأب متى المسكين الرسالة المنشورة تحت رقم ٤٧ عام ١٩٦٠، كانت الحركة نحو استرداد تراثنا الأرثوذكسي قد بدأت في السير، وإن كان ببطء، وعلى الرغم من مرور الأعوام، لا زالت المقاومة عنيفة كما كانت، وبذات درجة الانحدار الخلقي إلى ظلام الكذب والافتراء وتوجيه الاتهامات وإصدار الأحكام، ومن ثم التشهير.

لم يتغير الحال عما كان عليه منذ أربعين سنةً، اللهم إلاَّ في انضمام ذلك الجيش من الإكليروس – الذي لا يعرف لا التاريخ ولا القانون، ولا حتى الكتاب المقدس – إلى

قوى المقاومة. هؤلاء – بالرغم من ذلك – تحول بعضٌ منهم إلى قضاة، وجلسوا على منصة القضاء دون أن يكونوا مؤهلين لها، ودون أن تبدو عليهم أية ملامح تشي بقدرات تؤهلهم لإصدار أية أحكام، اللهم إلاَّ عمامة الأسقف.

لقد كان ضرورياً أن نعيد نشر هذه الرسالة؛ لأنها شهادة رائعة لناسك إنجيلي، وقبس من نور حاولنا أن نسير على هداه، ولم نصمت؛ لئلا يصبح الكذب تعليماً، ويصبح التراث الشعبي هو الأرثوذكسية.

لقد تغيَّر الزمان حقاً. ذهبت قيادات، وجاءت أخرى، ولكن ظلت مشكلة البابا ديمتريوس، وأوريجينوس العلامة العظيم، تطل برأسها، أي مشكلة الإدارة الكنسية التي تبحث عن الزعامة والقيادة ولو كان ذلك على حساب التراث والتسليم الرسولي، بل العقيدة الأرثوذكسية.

فقد ظل البابا ديمتريوس حائراً أمام سيل المعرفة التي ملأت مجلدات أوريجينوس، وما أشبه الليلة بالبارحة، فكما فعل البابا ديمتريوس حيال أوريجينوس، هكذا فعل الأنبا شنودة حيال مجلدات الأب متى المسكين؛ لأنه لم يجد فيها إلاَّ خطر المعرفة الذي يهدد زعامته.

كان يمكنه أن يكون زعيماً لو أنه سلك مسلك أثناسيوس العظيم، الذي لم يطارد تلاميذ أوريجينوس مثل ديديموس وغيره، لأن أثناسيوس كانت له رسالة خالدة، ولم يكن يحيا في فراغ خلقته عقدة نقص، فصار يطارد من هو أعلم منه بالعلوم الكنسية، بل طارد الأريوسية، وكاد أن يموت شهيداً.

وبعد

إذا كان اليوم هو مثل الأمس، فالخطر الحقيقي هو أننا لا نزال نعيش في الأمس بكل مشاكله، وإذا كنا قد تقدمنا، فقد تقدمنا للخلف، وهذا هو بعينه الوقوف على شفا حفرة الموت.

دكتور
جورج حبيب بباوي
القاهرة ٢٠٠٩

الباب الأول

الفصل الأول

أثر سيادة الأدب الشعبي
على عناصر التكوين العقيدي الأرثوذكسي
(التاريخ الكنسي والعقيدة والكتاب المقدس والآباء)

قد يظن القارئ الذي حُرِمَ من قراءة ودراسة تاريخ الكنيسة القبطية أن ما سجَّلناه هنا يُعد من قبيل الهجوم أو التطاول على الأنبا شنودة، أو غيره من قادة الكنيسة، ولكن قبل أن يصدر القارئ هذا الحكم أدعوه إلى التريث قليلاً لأن الحقيقة هي غير ذلك بالمرة.

ماذا نقصد بسيادة الأدب الشعبي؟

إذا عدنا إلى كتاب السنكسار – الجزء الأول، الذي نُشِرَ في عهد صاحب القداسة الأنبا شنودة الثالث عن طريق مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة ١٩٧٨م، وتحت ما ورد في اليوم الأول من شهر أمشير ص ٣٠٠ : ٣٠١ نجد تذكار اجتماع المجمع المسكوني بالقسطنطينية ٣٨١م. وهنا تطالعك صورة كاملة لكنيسة الأدب الشعبي القبطي، وبالتالي يتضح ما نقصده بالأدب الشعبي. فقد ذكر السنكسار أن المجمع اجتمع بأمر الملك ثأودوسيوس الكبير لمحاكمة مقدونيوس، وسابيليوس، وأبوليناريوس.

ويقول كاتب السنكسار إن البابا تيموثاؤس بابا الإسكندرية "سأل سابيليوس قائلاً: وأنت ما هو اعتقادك؟ فأجاب: إن للثالوث ذاتاً واحدة وأقنوماً واحداً. فقال له

الأنبا تيموثاؤس: إذا كان الثالوث كما زعمت، فقد بطُل ذكر الثالوث وبطُلت أيضاً معموديتك لأنها باسم الآب والابن والروح القدس، ويكون الثالوث على زعمك تألم ومات، وبطُل قول الإنجيل:إن الابن كان قائماً في الأردن، والروح القدس كان نازلاً عليه شبه حمامة، والآب يناديه من السماء. ثم نصحه أن يرجع عن رأيه الفاسد، فلم يقبل، فقطعه وجرَّده من رتبته"[1].

هذا ما أثبته السنكسار، ولكن إذا عُدنا إلى المصادر التاريخية الموثوق بها نجد أن "سابيليوس" قد مات منذ ما يزيد على مائة سنة قبل تاريخ انعقاد هذا المجمع، فقد عاش في فترة أسقفية ***Zephyrinus*** أسقف روما (١٩٨ – ٢١٧). وربما كان سابيليوس قساً في ليبيا مثل أريوس، وقد كتب ضده القس الروماني ***Novatian*** كتابه عن الثالوث، ولم نعد نسمع عنه شيئاً بالمرة حتى نهاية القرن الثالث، وبذلك يكون بينه وبين المجمع المسكوني الثاني ٨١ سنة على الأقل، وبالتالي فهو حتى لم يحاكم حضورياً في مجمع نيقية المنعقد في سنة ٣٢٥م، فما بالك بالمجمع المسكوني الثاني المنعقد في ٣٨١م!

إذن، فالحوار الوارد في كتاب السنكسار بينه وبين بابا الإسكندرية هو حوار لا أساس له في التاريخ. ولا يمكن تفسير دس مثل هذا الحوار في السنكسار إلاَّ على أساس أن أسلوب تدوين السنكسار خضع لأسلوب القصص الشعبي، فتجاهل قواعد إدارة جلسات المجمع والإجراءات القانونية المتخذة اللازمة لقانونية تلك الجلسات، لصالح شخص واحد هو البابا تيموثاؤس بطريرك الإسكندرية.

وما يجب ملاحظته هنا هو أن هذا الحوار في ذاته هو حوار صحيح لاهوتياً، رغم عدم وجوده في التاريخ؛ لأن سابيليوس لم يتقابل مع البابا تيموثاؤس السكندري بالمرة[2].

---

(1) راجع السنكسار القبطي تحت اليوم الأول من أمشير.

(2) راجع مجموعة الشرع الكنسي للأب يوحنا كساب – ممنشورات النور ١٩٩٨، وراجع الصفحات ٢٤١ – ٢٦٤ الخاصة بالمجمع المسكوني الثاني. راجع أيضاً تاريخ الكنيسة لسوزومين ص ٣٢٣ – ٤٢٥. وكذلك أبحاث كل من Grillmeier – Pestiage – J.N.D.Kelly. راجع أيضاً إيريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية،

ولم يقتصر الأمر على غياب سابيليوس عن المجمع أو عدم تقابله مع البابا تيموثاؤس على الإطلاق، بل تعدى ذلك إلى أن يصوِّر كاتب السنكسار – حسب الرواية المسجلة – أن الحكم الأخير كان لبابا الإسكندرية. وهذا أيضاً لا سند له من التاريخ، بل هو ضد القانون الكنسي الخاص بالمجامع؛ لأن أي قرار من المجمع لا يصدر عن شخص واحد، ولا باسم أحد مهما كانت مكانته، وإنما يصدر الحكم عن الجماعة وباسم المجمع.

كما يلاحظ المطلع على وثائق جلسات المجامع وحسب ما هو مدون في محاضر الجلسات، أن الحكم لا يقوم على استجواب المتهم – وهو السند الذي استندت إليه الرواية في السنكسار، بل يتأسس على ما يقدَّم للمجمع من الوثائق المدونة والمتمثلة في عظات ورسائل أرسلها المتهم نفسه، ثم استجواب الشهود، ثم الإعلان عن معارضة التعليم لما هو ثابت، وذلك بتقديم لائحة اتهام تسبق المحاكمة، كل ذلك مع مواجهة تامة وعلنية أمام كل الحاضرين، وتمكين المتهم من إبداء دفاعه عن نفسه. وبعد ذلك يصدر الحكم إذا تمسك المتهم بالتعليم المضاد للأرثوذكسية، لكن السنكسار القبطي قدَّم لنا الرواية بأسلوب عصر "المماليك والعثمانيين"، أي بالأسلوب الذي يكرس سلطان الشخص الواحد؛ وذلك حتى تفرض الرواية ذاتها على التاريخ، وتعيد كتابته بعقل وألفاظ وأسلوب الاستجواب الشائع في زمن المماليك، ومن بعده الدولة العثمانية.

فقد غابت عن كاتب السنكسار تلك المبادئ القانونية التي استمدتها الكنيسة من القانون الروماني، وهي الأساس الذي استندت عليه الكنيسة في إدارة جلسات المجامع

الكتاب الأول، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣ ص ٣٥٧ وما بعدها تحت عنوان المجمع المسكوني الثاني، حيث لا ذكر على الإطلاق لأيٍ من سابيليوس وأبوليناريوس.

المحلية والمسكونية. وقد كان القانون الروماني يعطي الحق للمتهم أن يستأنف الحكم الصادر ضده أمام الإمبراطور ذاته.

ثم يأتي السنكسار بعد ذلك على ذكر "أبوليناريوس"، فيقول الكاتب: "ثم سأل أبوليناريوس قائلاً: وأنت ما هو اعتقادك؟ فأجاب أن تجسد الابن كان باتحاده مع الجسد البشري دون النفس الناطقة....فقال له الأنبا تيموثاؤس: ...ثم نصحه ليرجع عن رأيه الفاسد، فلم يقبل، فقطعه أيضاً كزميليه"[1].

والحاصل أن أبوليناريوس كان قد حوكم أمام مجمع في الإسكندرية في ٣٦٢م[2]، ولذلك فهو أيضاً لم يحضر أمام المجمع المسكوني الثاني المنعقد في ٣٨١م.

ومرةً ثانية نلاحظ أن الرواية قدَّمت التعليم اللاهوتي الصحيح، ولكن في قالب "شعبي غير تاريخي" يهدف إلى تضخيم الذات وإبراز دور شخص معين، هو البابا تيموثاؤس.

هذا الأسلوب الذي رأيناه في السنكسار، هو ذاته الأسلوب الذي استخدمه البابا شنودة في كتاب "بدع حديثة"، فقد تكلم الأنبا شنودة عن أشخاص غير محددين، وعن بدع استحدثها هو، وأطلق اتهامات لا أساس لها من الصحة... إلخ دون مراجعة ما قال على عناصر التكوين العقيدي الأرثوذكسي كما سبق وأوضحناها.

على أنه وإن كان كتاب "بدع حديثة" قد اتفق مع السنكسار في الأسلوب، إلاَّ أن السنكسار تميَّز عنه بصحة الحوار اللاهوتي، رغم عدم تاريخيته. أمَّا كتاب "بدع حديثة" فقد خلا من السند التاريخي وصحة اللاهوت معاً، وبالرغم من ذلك أصبح الأنبا

---

(1) أصدر القمص تادرس السرياني سلسلة المتابعة اليومية للقراءات الكنسية في القطمارس السنوي الدوار للأيام والآحاد مع السنكسار، وقد أثبت القمص تادرس في صدر أول صفحة من صفحات كل كتاب في هذه السلسلة أن لجنة الطقوس الكنسية للمجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية المنعقدة في آخر مايو ١٩٩٦ وافقت على طباعة هذا الكتاب، وهو ما يقطع بأن هذه الرواية وغيرها كانت تحت بصر وسمع هذه اللجنة، ونترك للقارئ أن يتخيل ما لأعضاء هذه اللجنة من إمكانيات علمية بناءً عليها وافقت على نشره!!!

(2) كان القديس أثناسيوس الرسولي قد كتب قبل نياحته بقليل كتابين ضد تعليم أبوليناريوس، وقد قمنا بترجمتهما وقامت مؤسسة القديس أنطونيوس بالقاهرة بنشر الكتاب الأول بعنوان: تجسد ربنا يسوع المسيح في يناير ١٩٨٣، والكتاب الثاني بعنوان: ظهور المسيح المحيي، وقد نشر في يناير ١٩٨٤.

شنودة هو المرجع الوحيد في كل شيء حتى في التاريخ الكنسي ذاته. وأصبحت كلمته هي الأولى والأخيرة، وتفوق كل ما هو ثابت وراسخ في التاريخ، فهو يقدم رواية لما تكوَّن عنده هو نفسه من آراء دون أن يكون لها سند من التاريخ بالمرة.

التراث المسموع الذي لم يوضع تحت مجهر البحث

قد يتصادف أن تستمع إلى حديث شخصٍ ما في الطب مثلاً، فتجده يحدثك بطلاقة عن تشخيص بعض الأمراض والأدوية وبعض الآثار الجانبية التي تنتج عنها، حتى تظن للوهلة الأولى أن محدثك لا بد وأن يكون قد درس الطب وألمَّ بمجال تخصصه، إلى أن تُفاجأ بأن محدثك مجرد دعيّ ذكي، لم يدرس الطب ولا يمتلك من الثقافة الطبية إلاَّ ما ترامى إلى سمعه، وبالتالي، فهو وإن كان على قدر من ذكاء ولديه بعض المعلومات الطبية التي قد يتصادف أن تكون صحيحة، ليس على دراية بالعلوم الطبية ولا بالعلوم المساعدة كعلم وظائف الأعضاء، والكيمياء...إلخ تلك العلوم المؤهلة لممارسة الطب، وبالتالي فهو لا يصلح لأن يكون مرجعاً تلجأ إليه وقت الحاجة. هذه صورة واقعية لا تختلف كثيراً عن رواية السنكسار، فهذه الرواية لا تصمد قليلاً أو كثيراً أمام البحث، رغم أن ورودها في كتاب كنسي يعصمها – في نظر العامة – من توجيه النقد إليها، ولكن ما أن تسلط عليها الضوء حتى تنهار تماماً وتكتشف أنك أمام مجرد تراث مسموع، ومعلومات غير محققة يتم تسويقها بهدف إبراز دور القائد والزعيم، بغض النظر عما يترتب عليها من آثار تؤدي في النهاية إلى قتل أسلوب وروح المجامع الكنسية.

هكذا هو الأمر أيضاً بالنسبة لكتاب "بدع حديثة".

فعندما تقرأ هذا الكتاب، لا بد لك وأن تُعجب بذكاء الأنبا شنودة الثالث، ولكن ما أن تحاول مناقشة ما في الكتاب من أفكار، حتى تجدها تتهاوي وتتداعى أمام مجرد توجيه بعض الملاحظات، وهنا يتبين لك أن هذا الذكاء إنما كُرِّسَ لصياغة تراث سماعي لم يُبنَ على دراسة، فما يعرفه الأنبا شنودة يرتكز بشكل أساسي على ما سمعه،

وبالتالي فهو يناقش ما ورثه من معلومات سماعية لا أساس تاريخي لها، ولا ترتكن إلى أساس كتابي ولا علاقة لها بالآباء، بل كل ذلك عبارة عن تراث مسموع يعود إلى الأربعينيات، وإلى اجتهاد شخصي يفتقر إلى الأساس العقيدي.

أخطار الأدب الشعبي على الحياة الكنسية

تتبدى هذه الخطورة – بشكل أساسي – في فصل اللاهوت عن التاريخ، وفي طمس أسلوب القضاء الكنسي. وهي مأساة لا نزال نعيشها ونجني ثمارها في المئة سنة الأخيرة، ولذلك لم يكن عصر الأنبا شنودة فريداً في بابه، ولكن ما يعيب هذا العصر هو إصراره على عدم العودة إلى الحياة الكنسية الصحيحة الأرثوذكسية، والإبقاء على أسلوب عصر المماليك والعثمانيين وسيطرة أسلوب الأدب الشعبي على الحياة الكنسية.

ويمكننا أن نشير إلى بعض أثر الروايات الشعبية في مجال الإيمان فيما يلي:

أولاً: قد تحمل الروايات الشعبية في داخلها معلومات صحيحة عن الإيمان، ولكنها لا تقدم للقارئ أية شهادات تاريخية، وبذلك تقطع تماماً التواصل مع التاريخ الكنسي، ورواية السنكسار التي أوردناها خير دليل على ذلك.

ثانياً: تحمل الروايات الشعبية سرداً يخدم أيديولوجيةً معينة، وهي بذلك تكون ضد كل ما هو راسخ وثابت في الممارسة الكنسية الأرثوذكسية، وهو قرار الجماعة وحكم الجماعة، لا سلطة الفرد الواحد مهما كانت مكانته، وكتاب بدع حديثة خير مثال على ما نقول.

ثالثاً: إبراز دور شخص معين، وهو هنا بابا الإسكندرية على حساب ما استقر في الكنيسة من قواعد محاكمة الذين تركوا الإيمان، وكتاب "بدع حديثة" أيضاً خير مثال على ما نقول، فقد ضرب عرض الحائط بقواعد المحاكمات التي استقرت في القانون الكنسي والتي أخصها:

– ضرورة وجود الشهود، والمواجهة مع المتهم.

– تقديم الوثائق وضرورة اعتراف المتهم بصحة نسبتها إليه.
– العودة إلى إيمان الآباء السابقين، وهو ما نراه في وثائق المجامع المسكونية مثل ما حدث في مجمع خلقيدونية ٤٥١م حيث تم قراءة رسالتين للقديس كيرلس السكندري، كما تمت قراءة رسالة القديس أثناسيوس الرسولي إلى أبيكتيتوس في نصها الأصيل غير المزوَّر.

وهكذا يكون أخطر ما يصل إليه الوعي الكنسي هو بطولة الفرد أو زعامته، حتى لو كانت بدون سند قانوني من القانون الكنسي أو التسليم الذي درجنا على تسميته بالتقليد الكنسي. هنا ينقطع التواصل مع التسليم وتصبح زعامة شخص أو سيادة قوه، أهم من التاريخ ومن التسليم ومن الحياة الأرثوذكسية الصحيحة التي تقوم على وحدة جسد المسيح، الكنيسة تلك التي لا يريد لها الأدب الشعبي أن يحفظ لها مكانتها الحقيقية، وهي أنها "جسد المسيح الواحد"، وعليك – عزيزي القارئ – أن تلاحظ الكلمتين "جسد"، و"واحد"، والذي يجمع بين الاثنين هو المسيح، المسيح الواحد وجسده الواحد.

فما أعظم الفرق بين دراسة متأنية عن تاريخ الأريوسية نكتشف فيها أن صراع الأديرة ضد الأريوسية، ووقوف البرية والشعب معاً ضدها كان هو الذي حمى أثناسيوس من أكبر قوة عسكرية في زمانه، وبين أن ينفرد الأدب الشعبي بتضخيم دور أثناسيوس وحده، وبالتالي نسيان الحقيقة التاريخية التي تؤكد أن قبول مجمع نيقية ٣٢٥م في كل كنائس مصر كان هو الدعم الكنسي والشعبي الذي مكَّن أثناسيوس من أن يقول: "أنا ضد العالم"؛ لأن الكنائس والأديرة، وفي مقدمة هؤلاء أنطونيوس الكبير وباخوميوس أب الشركة، كانوا هم القاعدة التي ساندت أثناسيوس في هذه المواجهة.

رابعاً: يتميز الأدب الشعبي بأنه أدب مسموع، ولذلك فهو واسع الانتشار لدى عامة الشعب، وهو يخدم اتجاهات معينة، لا سيما "البطولة" كقيمة. ومع أن د. زيعور في

مؤلفه "قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية"[1] لم يلمس دور الأدب الشعبي في تأصيل "النرجسية"[2] التي هي انغلاق تام للأنا، إلاَّ أنه يمكننا أن نشير إلى قطاعات شعبية من النرجسية – مثل سيرة عنترة بن شداد، وشخصية سي السيد في ثلاثية نجيب محفوظ، أو شجيع السيما أبو شنب بريمة في مسرحية الليلة الكبيرة لصلاح جاهين – تفرض وجودها في ظروف خاصة كظروف الأزمات والأخطار التي تهدد الجماعة، وضعف الديمقراطية وانتشار عدم الثقة، وانتشار الأمية بكل أشكالها لا سيما الجهل بالتراث الكنسي، وتحول العرف إلى قانون لا يقبل البحث، والدفاع السلبي الذي تمارسه الجماعة بالانكفاء على ذاتها داخل مؤسسات الدين، والتراجع عن التصدي لأي خطأ مما كانت خطورته تجنباً لتكلفته.

وهكذا ينشأ الأدب الشعبي لكي يحول التاريخ إلى قيادات وزعامات تنفي دور الجماعة، وتؤسس سلطة الزعيم، وتعود للماضي تستخرج منه صور البطولة لأن الحاضر لا يسمح بها.

على أن أخطر ما يترتب على ذلك من آثار هو أن يتم إسقاط *projection* صور البطولة هذه على الحياة الحاضرة لكي تحل محل الشهادة.

خامساً: تظهر خطورة دور الأدب الشعبي بجلاء في إكرام هذا الكم الهائل من "عظام القديسين" في كل الكنائس، في الوقت الذي لو سألت الذين يتبركون بهذه العظام المقدسة عما يعرفونه عن أصحابها غير أسمائهم، لَمَا أجابوك بما يشفي الغليل. فقد توقف هؤلاء عند هذا الحد دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث والمعرفة. وفي الحقيقة لا يعتبر ذلك غريباً عما حدث في الاحتفال بذكرى نياحة القديس أثناسيوس الرسولي في روما،

---

(1) د. على زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية – التحليل النفسي للذات العربية – ٦ – دار الطليعة – بيروت، ١٩٨٢.

(2) نرجس هو شاب جميل الطلعة، رأى صورته في جدول ماء، فجلس يتأملها معجباً بها حتى مات من الجوع. يقول اشتراوس: "الأنا طفل الفلسفة المدلل الذي لا يحتمل. جاء لكي يشغل مكان الصدارة فوق خشبة المسرح الفلسفي، فوقف بذلك حجر عثرةٍ في وجه كل عمل جدي نتيجةً لرغبته المستمرة في الاستئثار وحده بكل انتباه" راجع د. زكريا إبراهيم – مشكلة البنية – مكتبة مصر – ١٩٧٥ ص ١.

بل يُعد ذلك مجرد صدى له، فقد سلمتنا كنيسة روما قطعة من العظم لا يزيد حجمها عن ١٠ سم وُضِعَت في صندوق كبير حُمِلَ بعناية، لكن ما تلى ذلك كان هو المأساة بكل المقاييس، فقد ألقيت في هذا الاحتفال المحاضرات من الأجانب الكاثوليك والإنجيليين، من ألمان وانجليز، وغيرهم، بينما اختفى الصوت المصري القبطي صاحب الاحتفال الأصيل. وما زاد الطين بلةً أننا اكتفينا بأن عدنا من روما "بقطعة من العظم"، دون أن نرد لصاحب هذه العظام اعتباره وغيبته عن التراث القبطي الحديث بأن نقدم للشعب – على الأقل – ترجمة كاملة لكتب القديس أثناسيوس، ناهيك عن إصدار دراسات عن هذه الأعمال، وكان ذلك هو الوجه الثاني للمأساة.

فقد كان كل ما لدينا من كتابات القديس أثناسيوس هو ترجمة لكتاب تجسد الكلمة للقمص مرقس داوود، وكذلك رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون وقد نشرته للقمص مرقس داوود مكتبة مدارس الأحد بالجيزة بفضل قناعة الأستاذ جرجس صبحي أمين المكتبة بنشر الكتاب، أمَّا باقي مؤلفات هذا القديس العظيم فقد كان غير معروف إلاَّ لمن اقتنى المجلد الخاص بالقديس أثناسيوس الذي نشرته جامعة أكسفورد ١٨٩٢ في سلسلة طبعت بعد ذلك عدة طبعات في مجموعة آباء ما قبل نيقية – نيقية – ما بعد نيقية، وقد بلغت ٣٨ مجلداً جاء بها القمص مكاري السرياني أثناء دراسته في جامعة برنستون بناء على طلب القمص متى المسكين وبسبب توصية د. عزيز سوريال عطية.

ولذلك يعود الفضل الأكبر للقمص متى المسكين الذي نشر مع رهبان دير السريان كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية لكي تعود روح النسك والصلاة إلى الكنيسة بعد انقطاع دام ما يزيد عن ألف سنة.

أمثلة على سيادة التراث الشعبي المسموع

– كنا نسمع من كثيرين من يقول إن المسيحية المصرية ورثت الديانة الفرعونية في عقائد التجسد – الثالوث – خلود الروح – قيامة الجسد. ومن نفس المعين نقل الأستاذ أبو زهرة "محاضرات في النصرانية"، وتبعه غيره. وهو تراث شعبي بلا أساس يعجز

الذين يقدمونه (الأنبا توماس هو آخر من ردد ذلك في الفضائية اللبنانية نورسات) عن تقديم نصوص مصرية فرعونية تقول إن الآب والابن والروح القدس الإله الواحد كان معروفاً في مصر الفرعونية.

– ومن ضمن الأمثلة "رئاسة الكهنوت"، وهي رئاسة ربنا يسوع المسيح، فلا زال لدينا من يقول إن البابا البطريرك هو رئيس الكهنوت، وما يزال لدينا من يقول إن تقبيل يد الكاهن هو جزء من الأرثوذكسية، وذلك لا أساس تاريخي له. وإذا قيل لأنه يحمل جسد الرب، فهو أيضاً يحمل الأشياء الضرورية لحياته اليومية، كما أننا نحن أنفسنا جسد الرب، أي أعضاء الكنيسة (١ كور ١٢: ١٢). لكن أصبح من يقول بغير ذلك "بروتستانتي". وهكذا أصبح الميزان هو الممارسة الشعبية، وليس الاحترام والمحبة التي هي ليست طقوساً خاصة.

– وأحد هذه الأمثلة هو التمسك بما جاء في اللاويين والتثنية عن طهارة النساء واعتبار أن دم الدورة الشهرية نوع من النجاسة، وهكذا ينزع التراث المسموع "ختم المعمودية"، وهو الختم الذي وصفه الطقس بأنه "الختم الذي لا يقبل الكسر" حسب صلواتنا القبطية.

ولذلك كان طبيعياً – في ظل سيادة الأدب الشعبي – أن يتجاسر محرر مجلة الكرازة – عن جهل – في تعليقه على كتابنا "تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية" بأن أخذ مقاطع كاملة من رسالة القديس أثناسيوس إلى آمون الراهب، ونسب هذه المقاطع لنا[1]، وهو شرف لا نستحقه، وهو ما يعني أن كاتب المقال لم يفرق بين نص القديس أثناسيوس وبين تعليقاتنا على هذا النص. وهذا إن دل، فإنما يدل على الجهل والتدليس وأسلوب القص واللصق الذي لا يجوز إلاَّ في بيئة الأدب الشعبي ومجتمع التراث المسموع الذي يقدس الأولياء والزعماء، أو حسب كلمات د. زيعور "المستعلي والأكبري" وهو

(١) مجلة الكرازة السنة ٣٥ العددان ٣٧، ٣٨ الصادر في نوفمبر ٢٠٠٧ ص ١٢، ١٣. أنظر صورة لهذا المقال في ملحق هذا الكتاب. وهو ما يعني أن المحرر لم يكلف نفسه عناء القراءة الدقيقة، بل اكتفى بالقص واللصق.

"القطب الأكبر" الذي له الولاية على رقاب العباد، وهو هنا "خليفة المسيح" و"العظيم في البطاركة" حسبما يقال عنه علناً أمام العالم كله، حيث تعلو كلمة "المستعلي الأكبري" على الكتاب المقدس، ويعلو صوته ويسجد الكل له، فهو فوق التاريخ وفوق التسليم.

– لم يدرك الأنبا بيشوي أنه لا يوجد لدينا عقيدة أسمها "الفداء والكفارة"، بل العقائد هي ما يوجد لها صيغة اعتراف في قانون الإيمان، أو قرار مجمع مسكوني. كعقيدة الاعتراف بالآب ضابط الكل، والرب الواحد يسوع المسيح حسب كلمات قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني. أما في موضوع الخلاص، فلا نجد عقيدة خاصة اسمها "الفداء والكفارة"، بل العقيدة هي: "هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس". فالاعتراف بالإيمان هو عقيدتنا وإيماننا بشخص المخلص ربنا يسوع المسيح. لكن يبدو أن الفكر يسير حسب قاعدة الحجاج بن يوسف الثقفي عامل الأمويين الذي حكم العراق بالدم، وهو صاحب العبارة المشهورة "متى أضع العمامة تعرفونني"، فقد صارت عمامة الأسقف قادرة على أن تخلق من العدم عقائد لا وجود لها، وأن يصبح كل سطر فيما كتبه الأسقف في كتيب باسم عقيدة الفداء والكفارة تعليماً عقائدياً.

"الأكبري" يرى نفسه وكأنه هو التاريخ، و"المستعلي" يرى فكره ويظن أنه الإيمان. بل هذا هو طريق الظلام الذي انقطع فيه نور التواصل مع التاريخ ومع التراث، وحل فيه الشخص محل القانون واللاهوت، ولم تعد الكنيسة جسد المسيح، بل صارت جماعة يحكمها أشخاص كلٍ حسب مزاج وأهواء سيدنا.

الرتبة الأسقفية ليست هي المرجع

الأسقف أبٌ وراع، فإذا كان على ذكاء، ولديه نبوغ خاص في اللاهوت أو الكتاب المقدس وتقدُّم بفضل الدراسة، فهذا جيد جداً، بل ومطلوب بشدة، لكن النبوغ أو الذكاء وحده ليس بكافٍ، ويكفي للتدليل على ذلك ما يأتي:

أولاً: انعدام الدراسة المنهجية عند قادة الكنيسة القبطية، فالأنبا شنودة الثالث درس في الكلية الإكليريكية في القسم المسائي، وانحصرت مراجعه في كتابات "متى هنري"، وغيرها من كتب غير أرثوذكسية، والدليل على ذلك خلو جميع كتبه من أي مرجع آبائي. والثاني – الأنبا بيشوي أسقف دمياط – لم يدرس في أي معهد إكليريكي من أي نوع، وبالتالي فإن معرفته تتسم بالسطحية وانعدام أي أساس تاريخي لها، فقط تجد بعض الأسماء والمصطلحات من قبيل شيء لزوم الشيء، فهو أيضاً مما يعتمدون بشكل أساسي على ما يعرفونه من تراث سماعي لا يستند إلى وثائق أو تاريخ. أما الكثير من الأساقفة، فهم لا يختلفون كثيراً – من هذه الناحية – عن ذلك، وقد أشرنا منذ قليل إلى قرار اللجنة المجمعية المختصة بالطقوس.

ثانياً: الصراع على القيادة، وهو صراعٌ ضاعت فيه ملامح الأبوة تماماً واعتمد على أسلوب التخطيط والمؤامرات، وهو أسلوب، وإن كان يصلح لبعض المؤسسات المدنية إلاَّ أنه مرفوض تماماً في الكنيسة؛ لأن الكنيسة ليست إحدى هذه المؤسسات. ولذلك، ولكي تخلو الساحة للمتصارعين، فقد تنافسوا على مطاردة كل من تسول له نفسه استخدام عقله، فطاردوا وحاصروا كل من يكتب ويفكر وينشر ويترجم، فقد أرادوا أن يموت الفكر، وهو العصب الأساسي في حياة الكنيسة. وعندما يطارَد هؤلاء الدارسون والباحثون خوفاً على زعامة الإكليروس، عندئذٍ فالأمر خطير؛ لأنه لم يعد هناك بحث ولا حوار، بل استبداد بالرأي الخاص الذي لا يستند على شيء إلاَّ الزِّي الكهنوتي. وما أعظم الفرق بين كهنوت رأيناه في قديسين معاصرين مثل القمص ميخائيل إبراهيم،

والقمص إبراهيم عطية، وأساقفة مثل البابا كيرلس والقمص متى المسكين وغيرهم، وبين من يدَّعون الأبوة لمجرد ارتدائهم هذا الزِّي.

لقد كان لمثل هؤلاء الاحترام والتقدير لأنهم كانوا آباءً وصانوا نعمة الكهنوت، ولذلك لا يجب أن ننسى أستاذنا النبيل الشريف الذي لم يكذب ولم يضمر العداوة لأحد، الأنبا أغريغوريوس، فقد اختلفنا معه حول سكنى الروح القدس، والاتحاد بالمسيح، وتقديس الجسد بعد المعمودية والميرون والإفخارستيا، ولكنه ظل الأب الذي يحترم تلاميذه، وظل الرجل الشريف الذي لا يزوِّر ولا يدلِّس ولا يكذب ولا يخترع اتهامات، بل كان يقبل بالحوار والعودة إلى المراجع، بل كان يرجع عن رأيه في بعض الأحيان.

ثالثاً: لا يعرف الدهماء حجم الخسارة التي تترتب على صدور قرار حرمان دون إبداء الأسباب، ودون دليل وبلا محاكمة. ويمكننا أن نسوق مثالاً على ذلك ما حدث مع الدكتور هاني مينا، فقد كتب كتيباً بعنوان "الله والإنسان والكون المادي"، كتب له المقدمة الأب الفاضل القمص أنطونيوس أمين، فما أن نشر هذا الكتيب حتى صدر قرار بحرمان الدكتور هاني من التناول، وكان وقتها في غرفة الإنعاش معلقاً بين الحياة والموت، وكان الذي نقل إليه قرار الحرمان هو القمص أنطونيوس ثابت وكيل الأنبا شنودة الثالث، بل زاد البعض على هذا القرار أن يشمل الحرمان زوجته وأولاده.

والضرر الكبير هنا هو عدم الثقة فيمن أصدروا القرار، فقد نزعوا عنهم كل صلة بالحق والمحبة خصوصاً مع عدم توجيه تهمة عقائدية واضحة. وبالطبع لم يتجاسر الأنبا شنودة على أن يمس القمص أنطونيوس أمين، والأسباب معروفة لا داع لذكرها.

كذلك، فقد صدرت قرارات بمنع صلاة الجناز عن موتى مثل الأستاذ موسى صبري رئيس تحرير جريدة الأخبار. والدكتور نظمي لوقا الأستاذ في جامعة عين شمس، ثم الآباء الكهنة دانيال وديع، وإبراهيم عبد السيد، كما وصل الأمر إلى تهديد كل من يحتج على ذلك بعدم الصلاة عليه عند وفاته، وعدم تزويج أولاده. فلم يعد الكهنوت نعمة، بل تحول إلى قاعدة للاستبداد والقهر خصوصاً مع انعدام الحوار. ويكفي عزيزي القارئ

أن تعرف أن الدكتور سعد الدين إبراهيم حاول الاتصال بالأنبا شنودة الثالث في أمريكا لكي يسمح بالصلاة على القس إبراهيم عبد السيد، ولكن الرفض كان هو الرد. وعندما تشجع الراهب الأب أغاثون وقام بالصلاة عليه في المدافن كان نصيبه التهديد بالحرمان والقطع من الشركة.

هذا إلى جوار إشاعة الخوف والرعب في نفوسٍ حرة لا تريد الانفصال عن الكنيسة، ولا تفكر في ذلك على الإطلاق، ولكن على هؤلاء الملتزمين بالمحبة أن يكونوا عبيداً صامتين لإرادة نرجسية تدور حول الأنا التي لا تعترف بوجود الآخر.

رابعاً: توزيع الاتهامات الكاذبة والتطاول على الباحثين، فقد وصف د. هاني مينا بأنه محارب العدل الإلهي. ووصف د. جورج بباوي بأنه عدو المسيح. كما وصف الأب متى المسكين بأنه أشر من شهود يهوه. وهي شتائم لا تليق بالمرة، خصوصاً وأنها بلا أساس. ولا شك أن الدفاع بالشتائم دليلٌ على العجز.

وليس هناك دليل على هذا العجز أكبر من عجز الأنبا شنودة عن وضع اتهام عقيدي واحد منذ ١٩٨٤م وبعد صدور كتابنا "القديس أثناسيوس في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي". وهو ما يكشف عن مدى العجز الواضح في فهم التاريخ الكنسي والعقيدة والاكتفاء بعبارات مقطوعة من شرائط مزورة.

ولما كان دير القديس أنبا مقار يمثل أول حلقة اتصال في العصر الحديث مع تراثنا القبطي الضائع، لذا بدأ التفكير في كيفية ضربه ضربةً قاتلةً، خصوصاً بعد أن عجزوا عن محاكمة الأب متى المسكين لأسباب معروفة لا علاقة لها برئيس الجمهورية على الإطلاق، وهكذا سمعنا تهديدات لبعض رهبان دير الأنبا مقار بالمحاكمة والحرمان. وهكذا أيضاً يجدون في جورج بباوي هدفاً يمكن ضربه حتى تحسب الضربة ضمناً للأب متى المسكين وللدير، خصوصاً ومعركة خلافة الأنبا شنودة على الأبواب.

وهكذا تأتي الاتهامات ليس فقط "بشبورة فكرية"، بل بظلام تام أصبح يلف أقدس ما لدينا من عقائد ابتداءً من الثالوث إلى قيامة الجسد مروراً بالروح القدس، والسرائر لا سيما الإفخارستيا.

من هو مدرس آباء الكنيسة في الكلية الإكليريكية؟

نضع هنا تحت بصر وسمع القارئ هذه الحقائق العارية المؤلمة جداً التي يجب أن يعرفها الجميع؛ لأنها تكشف عن تداعيات وسقطات كبرى كان يمكن أن نتجنبها:

أولاً: عندما التحقت بالقسم النهاري، وطوال أربع سنوات كانت معرفتنا بالآباء تقتصر على الأسماء فقط، مع بعض شذرات في أنثولوجيات اللاهوت المقارن لأستاذنا الكبير د. وهيب عطا لله، وهي مقاطع من:

* الرد على الأريوسية في مذكرة خاصة بالأريوسية.
* خطابات القديس كيرلس في مذكرة عن النسطورية.
* شذرات لكل من أكليمنضس وأوريجينوس.

وكان لدينا ترجمات عربية لـ:

* رسائل الشهيد أغناطيوس الإنطاكي.
* تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي.
* رسائل القديس أثناسيوس الرسولي لسرابيون

أمَّا في مجال التاريخ الكنسي، فلم يكن لنا معرفة بالمؤلفات التاريخية ليوسابيوس القيصري – سوزومين – سقراط – ثيؤدوريت – جناديوس – ولا حتى تاريخ البطاركة لابن المقفع، فلم يكن قد طبع بعد، ولم نكن نملك إلاَّ كتاب القمص منسى يوحنا، والخريدة النفيسة، دون العودة إلى مصادر التاريخ الكنسي.

وفي مجال الكتاب المقدس كان لدينا مذكرات أستاذنا وهيب جورجي، وهي مقدمات لأسفار العهد القديم، وجاء أستاذنا الكبير د. موريس تاوضروس بأول عمل

علمي وتاريخي بمقدمات الأسفار. لكن لم يكن لدينا أي كتاب تفسير من كتب الآباء، بل كانت لدينا مجلدات وليم آدي الأمريكاني، والتفاسير الأخرى للقس إبراهيم سعيد، والقس جاردنر، ومتى هنري، وماكنتوش. أمَّا تفاسير وعظات الآباء فقد سمعنا عنها فقط.

وفي مجال العقيدة الأرثوذكسية، لم يكن لدينا شيء إلاَّ مقدمات اللاهوت المقارن لأستاذنا د. وهيب عطا الله، وكذلك كتاب أسرار الكنيسة السبعة لأستاذنا حبيب جرجس الذي كان قد نُقل بكامله من كتاب الأنوار في الأسرار للمطران جراسيموس مسرة مطران اللاذقية للروم الأرثوذكس (الكفار)!!، وزاد الكفر عندما نقل الأستاذ حبيب جرجس مقالة عن الكهنوت كانت قد نشرتها الكنيسة الأسقفية في القاهرة. وحتى تاريخ كتابة هذه السطور لازال الوضع على ما هو عليه. ولكن يبقى السؤال: لماذا غاب كتاب الكهنوت لذهبي الفم، وكتاب رئاسة الكهنوت للأريوباغي؟ وهنا سؤال آخر نوجهه للسادة الإكليروس الأفاضل الذين لا يتورعون عن مهاجمتنا مما لأةً وذلفى: لماذا لم يتم نشر كتابات الأنبا يوساب الأبح في الرد على الإرساليات؟

ثانياً: لا يمكن إنكار وجود كتاب الخريدة النفيسة للأنبا إيسيذوروس (تم تجريده من الكهنوت)، أو تاريخ الكنيسة للقمص منسى يوحنا، أو تاريخ الكنيسة القبطية لمدام بوتشر (من كفار الأنجليكان)!! وقد تمت ترجمته عن الإنجليزية. وقد ساهمت مدام بوتشر أيضاً مع سيدة انجليزية أخرى في نشر حياة الأنبا أنطونيوس التي نشرت لأول مرة كاملة باللغة العربية في سنة ١٩٢٩ تعريب جبرائيل بك روفائيل الطوخي مع إضافات مدام مارغليوث الأستاذ بجامعة أكسفورد، إلاَّ أن المدهش في الأمر هو أن الناشر كان مكتبة النيل المسيحية بالقاهرة!!

كانت وثائق التراث الآبائي – الكتابي – التاريخي بعيدة تماماً عن الكل. ولم يكن لدينا مدرس للآباء، وعندما حاولت تدريس الآباء بعد عودتي من بعثة الإكليريكية في سنة ١٩٧٠م صدر قرار من الأنبا شنودة بمنعي من تدريس الآباء وتحول جدول

الدراسة بالنسبة لي إلى تدريس اللغة الإنجليزية بدلاً من مادة الآباء؛ لأن محاضرات تجسد الكلمة أزعجت قداسته. ولعل الأنبا شنودة يتذكر هذه الواقعة، فهو لا ينسى.

كانت أول مقدمات لعلم الآباء تلك التي نشرها القمص تادرس يعقوب، ولكني قمت لأول مرة منذ القرن الخامس بترجمة كتاب شرح تجسد الابن الوحيد للقديس كيرلس السكندري، ولما رفض أنبا شنودة تمويل طباعة الكتاب، قام الدكتور وليم سليمان بجمع نفقات الطبع، ثم تلاه كتاب رسائل الشهيد أغناطيوس الأنطاكي، وكتاب الروح القدس للقديس باسيليوس الذي كتب له المقدمة نيافة الأنبا يوأنس أسقف الغربية المتنيح، ثم تلا ذلك كتابي القديس أثناسيوس الرسولي في الرد على أبوليناريوس، وكتاب الروح القدس للقديس أمبروسيوس، وكذلك مقدمة التجسد لجرجس بن العميد.

أما عن محاضراتي بالكلية الإكليريكية في طنطا، فقد طبعت في الكتب التالية:

* مقدمة مع الكتاب الأول – أوريجينوس.
* حوار عن الثالوث.
* حوار عن التجسد.
* الإنسان صورة الله ومثاله.
* العذراء حواء الثانية.
* شرح القداس الباسيلي.
* مدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي.
* المعمودية في القرون الخمسة الأولى.
* السقوط وأساس الخلاص، الواحد والجماعة في العهد القديم.
* الكنيسة جسد المسيح.
* لماذا اعتمد يسوع؟

أما ما تم انجازه بعد طردي من الكنيسة عام ١٩٨٤ فقد تمثل في:

* ترجمة كتاب الوجود شركة للمطران يوحنا زيزيولاس.

* القديس أثناسيوس في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي.
* ترجمة شرح قانون الإيمان للقديس كيرلس الكبير.
* ترجمة كتاب المسيح واحد للقديس كيرلس الكبير.

وذلك بخلاف ما يتم نشره، سواء أكان مطبوعاً، أو إليكترونياً على شبكة الانترنت في موقع *coptology.com* وغيره من المواقع.

وبعد، وبدون تعليق،

هذا هو جهد من درس مع الملحدين والكفار في جامعة كامبريدج، فأين جهد الآخرين؟ أين هو جهد اللاهوتي الأوحد، قائد حملة العداوة والكراهية (هو يعرف نفسه)، وأين هي دراساته التي تخلو من الرجوع إلى الآباء، ومن التاريخ والتراث الكنسي، ومن شرح الكتاب المقدس حسب التسليم الكنسي، أين هي هذه الدراسات مما نشرناه؟

من هو الذي ينشر تراثنا القبطي؟

أكتب هذه السطور في خجل شديد، مصدره الأول التطاول بالشتائم على الغرب، وهو الجهة الوحيدة التي قدمت لنا تراثنا القبطي:

أولاً: جامعة لوفان – بلجيكا

حيث نشرت سلسلة *Corpus Scriptorum* وهي خاصة بالتراث القبطي – العربي – السرياني – الأرمني. وقد بدأ النشر في عام ١٩٠٣ ولا تزال تنشر حتى الآن.

ثانياً: جامعة أكسفورد

فقد نشرت العهد الجديد القبطي كله ابتداءً من عام ١٩٢٤ وقد سبق لنا أن أشرنا إلى الـ٣٨ مجلد لآباء نيقية وما قبل نيقية وما بعد نيقية.

ثالثاً: مجموعة الآباء اليونانيين – باريس، وذلك ابتداءً من عام ١٨٥٧م بعنوان *Patrologia cursus completus. Series Graeca. Migne* وقد بلغت ١٦٦ مجلداً.

رابعاً: مجموعة الآباء، النصوص الأصلية مع ترجمة فرنسية – باريس بعنوان *Sources Chretienne* وقد أشرف على بعضٍ منها الأب *H.de Lubac* وهي ما تزال تصدر حتى تاريخ كتابة هذه الصدور منذ عام ١٩٤٤م.

خامساً: القاموس القبطي: لعل أكبر مفارقة أن تكون جامعة أكسفورد هي التي نشرت أول قاموس قبطي *A Coptic Dictionary* في عام ١٩٣٩م للعالم *W.E.Crum* بالاشتراك مع الأستاذ *W.Till* الذي تتلمذ على يديه أستاذنا د. وهيب عطا الله عندما سافر ليدرس في جامعة مانشستر.

حديثٌ مؤلمٌ حقاً، ولكن يجب الاعتراف بمزيد من الحقائق التاريخية:

* كانت أول طبعة لعظات ذهبي الفم على رسائل القديس بولس الرسول ١٨٨٤م عن طريق جامعة أكسفورد، وكانت الكنيسة اليونانية وقتها تحت الاحتلال العثماني.

* كان الأرشيدياكون حبيب جرجس هو صاحب أول رؤية لعودة الإكليريكية، وإن كانت مناهج الدراسة بدائية، ولا زلت أذكر الرجل الوقور أستاذنا بقطر شحاتة الذي كان يشرح العهد الجديد من الذاكرة دون مراجع، ودون العودة حتى إلى النص القبطي لأننا لم نكن نملك سوى الأناجيل الأربعة باللغة القبطية، ولم يكن مستوى معرفتنا باللغة القبطية يسمح بدراسة النص القبطي.

يلعن الغرب بينما هو تلميذ وفيٌّ للغرب

بسبب انعدام الدراسة المنهجية لم يدرك الأنبا بيشوي أن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية كلها لا تعرف عقيدةً اسمها "الفداء والكفارة"، ولا يعرف أن هذا الاسم دخل المؤلفات العربية الإنجيلية من المصادر الغربية الإنجيلية التي قسَّمت فروع علم اللاهوت في القرن السابع عشر، وخلقت النظام *system* الذي نراه في كتاب علم اللاهوت النظامي للكنيسة الإنجيلية في مصر، وهكذا وقع في هذه الورطة نتيجة تراث السماع.

وبالرغم من أن جميع الكنائس شرقاً وغرباً تعترف بموت الرب الخلاصي، إلاَّ أن هذا الاعتراف يندرج في اللاهوت الشرقي ويدخل في دائرة أكبر من تقسيمات اللاهوت الغربي الإنجيلي، وهي دائرة يعرفها الذين درسوا الأرثوذكسية دراسة منهجية آبائية – أي دائرة "التدبير". فالخلاص تدبيرٌ إلهي، ولكن الذين شتمونا[1] وقالوا إننا نقرأ الكتب الغربية وننقل عنها، وفي مقدمة هؤلاء الأنبا شنودة الثالث نفسه، لم يدرك أنه غارق حتى أذنيه، ليس فقط في قبول فروع علم اللاهوت النظامي الإنجيلي، بل وحتى في المصطلحات اللاهوتية نفسها. وليس فقط في استعارة "عقيدة الفداء والكفارة" عند الأنبا بيشوي، بل حتى عند الأنبا شنودة عندما يستخدم – اعتماداً على ما يسود من المعرفة السماعية – تعبير "الكنيسة جسد المسيح السري"، فكلمة "السري" لم ترد في الكتاب المقدس، ولا عند آباء الكنيسة الأرثوذكسية، بل تنسب للقديس أوغسطينوس، وإن كانت كل الدراسات المعاصرة تؤكد أن التعبير نفسه هو ثمرة علم اللاهوت الغربي الذي بُني على مدرسة أوغسطينوس في العصر الوسيط، أي اللاهوت المدرسي ***Scholastic*** والذي كتب فيه أستاذنا المرحوم يوسف كرم صفحات هامة في كتابه "الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط"، وهو كتاب يجب العودة إليه على الأقل لاكتشاف المصطلحات التقنية ***Technical*** التي سادت في الغرب في هذا العصر.

لكننا أمام لاهوت الزِّي الأسقفي الذي يعطي من يرتديه الحق في أن يردد ما يشاء من التراث الشعبي، من تراث السماع، وأن ينقل ما يشاء من كتاب علم اللاهوت للكنيسة الإنجيلية، بل وحتى من كتب القس المعمداني سبرجن، الأب الروحي الحقيقي للأنبا شنودة الثالث، وهو بدوره الأب الروحي للأنبا بيشوي. وهكذا يقع الشعب البسيط فريسة للتعليم الأرثوذكسي المزوَّر، على اعتبار أن ما يقوله الأسقف حقٌ صريح.

على أنه وبالرغم من كل ذلك، لم يكن لكل هذا أن يشكل مشكلة على الإطلاق، ولا كان يجب أن تكون هناك أية مشكلة؛ لأن تنقية تراثنا الكنسي هي

---

(1) أنظر صورة لعدد مجلة الكرازة الصادر يوم الجمعة ٢٠٠٧/٥/٢٥ بملحق الكتاب.

مسئوليتنا جميعاً. وبالرغم من أن مسيرة تنقية هذا التراث تعد مسيرةً طويلة جداً، إلاَّ أنها سهلة جداً، هذا إذا حسنت النوايا، ولكن الكراهية وحب الزعامة وانتزاع السلطان المطلق باسم الكهنوت وبث الحقد وإشعال نار الخصام، حوَّل كل ذلك إلى مشكلة سوف تجر معها أجيال آتية.

ومع ذلك فالحل سهل جداً، وهو لا يتطلب من الذين مارسوا الاستبداد أن يعترفوا بالخطأ، ولا بالاعتذار في الصحافة – وهو الأمر الذي يطلبونه هم من شعب الكنيسة – ولكن بالحوار العلمي والتاريخي وتأدب المحبة المسيحية التي بكل أسف غابت عن المقالات وشرائط الكاسيت، وحل محلها الكذب والتشهير. وعندما تصبح الاتهامات الكاذبة والشتائم هي لغة الحوار في الكنيسة، فإن الكنيسة التي تصمت خوفاً من البطش أو عجزاً عن الشهادة، تكون قد فقدت ليس فقط الشجاعة، بل أهم ما يميز التعليم المسيحي وهو المحبة.

لقد سبق لنا أن كتبنا الخطابات، وتوسلنا ومعنا غيرنا (الأنبا غريغوريوس والأنبا أثناسيوس مطران بني سويف المتنيح، والأنبا يوأنس مطران الغربية المتنيح، بل وبعض قيادات الكنيسة الكاثوليكية)، ولكن ظن هؤلاء أننا عن ضعف نتوسل، وفات عليهم أن المحبة المجروحة أقوى من الموت، وإذا كانوا لا يصدقون فعليهم أن يسألوا ربنا يسوع المسيح.

لقد كنا نقدر ما تمر به الكنيسة من ألم ومعاناة نتيجة المضايقات وسفك الدم في الكشح وغيرها، لكن رغم ما أحاط بنا من معاناة لم يكف هؤلاء عن التنديد بنا في كل المجالس وفي كل اللقاءات... وأخيراً جاء قرار "جمعية الأساقفة" الذي عقد في البطريركية في مارس ٢٠٠٨م. وقد قلنا قرار "جمعية الأساقفة"، لأنه عزَّ علينا أن نعطي لهذا الاجتماع اسم "المجمع"؛ لأن المجمع ليس مجرد اسم، بل هو اجتماعٌ بالثالوث القدوس وبالقديسين المعلِّمين، وهو تمسكٌ بالشهادة والمحبة والأرثوذكسية، ولكن ذلك

الاجتماع كان نذير شؤم وفضح لهذه القيادات، منهم من غمس يديه في دم الأبرياء، ومنهم من صَمَت.

كان من الضروري أن نكتب هذا الرد، حتى لا يسجل علينا التاريخ صمتاً قد يحسبه البعض اعترافاً منا بصحة ما حدث وتسليماً من جانبا به، وقد يحسبه البعض الآخر جبناً منا وما كنا يوماً من الجبناء. كان ضرورياً أن نكتب هذا الرد بعد أن فشلت المحبة في إقناع قادتنا بالعدول عن الأخطاء وأصبحت الشهادة لازمة، بل وواجب لا يمكن أن نتنازل عنه مهما كان الثمن.

الفصل الثاني

العودة إلى المنهج الكنسي الأصيل، هل هي جريمة؟

يقول الأب متى المسكين في مقدمة كتاب "الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار": «أن شغفنا الشديد بالتقليد الكنسي والتراث الأبوي الروحي، هو الذي دفعنا للاتجاه الرهباني نستعرض من خلاله الحياة المسيحية كما عرفتها الكنيسة القبطية في عصورها الأولى، لا في صورة أبحاث لاهوتية أو تأملات في مواضيع كتابية، ولكن في اختبارات حية وعهود محبة عاشها القديسون تطبيقاً مباشراً لتعليم المسيح والرسل والأنبياء، فكانت حياتهم آيات من الإنجيل تعيش وتتكلم» (ص ٣١ – طبعة ١٩٧٢).

ومن يقرأ مقدمات مجلدات الأب متى المسكين، يجد أنها تحدد دائماً غاية الدراسة والبحث. وعلى ذلك فالكلمات التي نقلناها عن كتاب "الرهبنة القبطية" تؤكد لنا أحد أسباب اختيار الحياة الرهبانية لتقديم صورة عن الحياة المسيحية كما عاشتها الكنيسة القبطية في عصورها الأولى. وهكذا تجيء السنوات اللاحقة لتؤكد إصرار الأب متى المسكين على ما ذكره، وهو ما تشهد له الطبعة الأولى من كتاب "حياة الصلاة الأرثوذكسية"١٩٥٥، أي منذ قرابة ربع قرن من الزمان مع مسيرة تتجه – كما ذكر هو نفسه – إلى تقديم الاختبار الحي، وإلى اكتشاف الأساس الروحي الذي سلمه إلينا الرب يسوع نفسه والآباء.

ولعل القارئ الذي اقتنى مجموعة شرح أسفار العهد الجديد – وهو أكبر مشروع ثقافي روحي كنسي في القرن العشرين – سوف يجد في كل مجلد أكثر من موضع يناقش

فيه الأب متى المسكين أخطاءً وجدها في المراجع التي درسها. وفي هذا ما يؤكد على أن شرح الأب متى المسكين، إنما يهدف إلى تقديم الخبرة الحية، وتذوق الحياة في المسيح، والاحتفاظ بروح الأرثوذكسية التي ذاقها وبشَّر بها، لأنه عاشها ووجد أن تخصيص حياته للحياة النسكية هو ميزان الإفراز الذي يستند على التاريخ، وقبل التاريخ الإيمان الأرثوذكسي الذي حفظته كنيستنا القبطية الأرثوذكسية، وهو المنهج الكنسي الأصيل.

فالأب متى يقدم "تاريخ الحياة" وليس التاريخ فقط، وشهادة "الحياة" وليس مجرد الشهادة، وقبل كل هذا وذاك هو دائماً في كل مقالة وكتاب يذكر دائماً أن الأساس هو «استعلان يسوع المسيح الرب والمخلص بالروح القدس»، وهو يكرر هذه العبارة دائماً عندما يقترب من الحياة الأرثوذكسية، ومن الإيمان، ومن المعرفة الروحية الأرثوذكسية.

معرفة الحق من التاريخ والآباء

ينبغي أن نعترف بالحق، لأن الرب قال لنا "الحق يحرركم" (يوحنا ٨: ٣٢). والحق يحرر؛ لأن المسيح هو الحق. يقول الآب متى المسكين: «المسيح هو الطريق. أي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق، لأنه هو الوحيد الذي فيه حل ملء اللاهوت وأعلنه جسديا ... أي الوحيد الذي أعلن الحق الإلهي المطلق منظوراً ومسموعاً ومعمولاً، والحق هو جوهر الحريات» (شرح إنجيل يوحنا ٨: ٣٢ – المجلد الأول ص ٥٤٢). وتحرير الإنسان من عبودية الخطية يقول عنها الآب متى المسكين: «هي أقصى غاية الحرية التي يمكن أن يبلغها المخلوق» (المرجع السابق ص ٥٤٢). فإذا كان الحق هو أقصى غاية الحرية، فما هو الحق حسب الإنجيل؟ يقول الأب متى المسكين عن الحق أي المسيح: «ليس هو الحق الفلسفي الفكري الذي ينتهي عند العقل لمعرفة حقيقة الأشياء وجوهرها وتمييزها من مظاهر الأشياء، بل الحق الروحي الذي يؤدي إلى الحياة في الله ومعه، الحق الذي يحرر المشيئة من التعلق بالباطل والأوهام والخطية، وهو حق السلوك والعمل والحب والبذل» (المرجع السابق ص ٥٤٣).

ومعرفتنا بالمسيح الحق – كما يشرح الأب متى المسكين – «ليست من على بعد كمعرفة التأمل في الأمور الخارجة... بل معرفة المسيح، هي قبوله شخصياً والخضوع له بالفكر والمشيئة والقلب" (المرجع السابق ص ٥٤٣).

وخلف شرح الأب متى المسكين يكمن تراثنا الروحي الأرثوذكسي كله، وهو الصلة غير الظاهرة بين "شجرة معرفة الخير والشر" و "شجرة الحياة". وقد كانت أول محاولة لفك رموز الشجرتين هي رسالة ديوجنيتوس، وعمَّق الشرح اللاهوتي الآباء غريغوريوس النزيزي وغريغوريوس النيسي. والنقطة الجوهرية في هذا الموضوع هي علاقة الحق بالحياة وعلاقة المعرفة بالحياة. يلمس الأب متى المسكين هذا الموضوع الكبير في سطور قليلة وهو يشرح يوحنا(٨: ٢٢)، ولكن الشرح يشمل كل آيات إنجيل يوحنا التي وردت فيها كلمة "حق" ويقول: «يستحيل بلوغ الحرية – للحياة بها – إلا بمعرفة الحق، ويستحيل معرفة الحق – للحياة به – إلاَّ بالمسيح. حيث حرية مجد أولاد الله» (رو ٨: ٢١).

في رسالة ديوجنيتوس وهي من مدونات القرن الثاني يقول الكاتب – ربما هو القديس اكليمندس السكندري – إن «المعرفة لا تجلب الموت»، وهو هنا يضع مسئولية الموت ليس على المعرفة، بل على ما نجنيه ونطلبه من المعرفة. ولذلك يقول: «يوجد سر عميق في كلمات السفر (التكوين) التي تخبرنا بأنه كيف غرس الله في البدء شجرة المعرفة وشجرة الحياة في وسط الفردوس، لكي يعلن لنا أن الحياة هي بالمعرفة. ولكن لأن الإنسانين (آدم وحواء) الأولين لم يستخدما هذه المعرفة بقلب نقي. فقد تعرَّيا (من المعرفة) بغواية الحية. ولذلك لا توجد حياة بدون معرفة، ولا توجد معرفة حقيقية بدون حياة حقيقية، ولذلك غُرست الشجرتان معاً في الفردوس». (راجع سلسلة آباء الكنيسة ١: ٣٦٨ والملاحظات على فصل ١٢: ٢ من رسالة ديوجنيتوس).

لقد صُلب الرب على شجرة المعرفة، لكي يحول المعرفة إلى حياة «سِيق المسيح إلى الشجرة وصُلِبَ عليها، ولكنه بشجرة الحياة جددنا، نعم لقد خلَّص حتى اللص الذي صُلِبَ معه». (المقالة ٢٩: ٢٠ للقديس غريغوريوس النزيزي).

هكذا أراد رائدنا الأب متى المسكين، أن نعرف المسيح لكي نعرف ونحيا، ونحيا لكي نعرف؛ لأن الحياة الحقيقية تعطي المعرفة الحقيقية، والحياة الزائفة تعطي معرفة كاذبة (ديوجنيتوس ١٢: ٢ – ٣). والصلة الوثيقة بين الشجرتين، تجعل القديس غريغوريوس النيسي يتصور أن الفردوس مثل الدائرة. وأن للدائرة مركز واحد، ولذلك فعبارة سفر التكوين "في وسط الفردوس" تعني أن الشجرتين معاً هما وجهان لحقيقة واحدة لا يمكن فصلهما[١].

ونحن نصلي من أجل هذه المعرفة المعلنة في المسيح: "أيها الكائن السيد الرب الإله الحق من الإله الحق الذي أظهر لنا نور الآب، الذي أنعم لنا بمعرفة الروح القدس الحقيقية". كما نقل: "وأعطيتني علم معرفتك، أظهرت لي شجرة الحياة وعرفتني شوكة الموت ...". ولا شك أن صدى هذه الصلوات نراه في الكلمات السابقة للأب متى المسكين.

«أقدم لك يا سيدي كل صور حريتي»

Nicumboulon nte tametremhe

أو حسب ترجمة أولاد العسال "مشورات حريتي، وأكتب أعمالي حسب أقوالك.....". إنها حياة التسليم التي تمثل صرخة، بل صرخات راهب الإسقيط في كل مؤلفاته "التلامس مع المسيح" و "الالتصاق بالمسيح" و "الصلب مع المسيح"، الموت معه؛ لأن هذا وحده هو الذي يحول شجرة المعرفة إلى شجرة حياة "أتيت يا سيدنا وأنقذتنا بمعرفة صليبك الحقيقية، وأنعمت لنا بشجرة الحياة التي هي جسدك الإلهي ودمك الكريم" (صلاة القسمة).

---

(١) عظة على سفر النشيد ١٢: مجلد ٤٤: ١٠٢.

لماذا غابت كتابات الآباء عن المؤلفات القبطية المعاصرة؟

لماذا ترك لنا الآباء هذا البحر الكبير من المؤلفات التي تشمل كل شيء؟ والجواب: لكي تكون المعرفة اللاهوتية بداية تحرر من المعرفة الكاذبة. لكي نعرف المسيح ونحيا فيه وبه، وعند ذلك تصبح الحياة والمعرفة هما الوجهان، أو الجانبان أو اليدان أو القدمان اللتين نسير عليهما. هكذا شاء الأب متى المسكين، أن يفتح لنا باب تراثنا.

وهنا يجب أن نشير إلى أن المجلدات الإنجليزية لمجموعة آباء ما قبل نيقية – آباء نيقية – ما بعد نيقية لا تمثل أكثر من ٣: ١٠ من كتابات الآباء؛ لأن كتابات القديس كيرلس، ديديموس الضرير، معظم مؤلفات العلامة أوريجينوس لم تترجم. ولذلك جاءت سلسلة الينابيع المسيحية الفرنسية، ثم سلسلة أخرى بالإنجليزية، وهي سلسلة آباء الكنيسة التي تنشرها الجامعة الكاثوليكية بالولايات المتحدة، التي نَشرت لأول مرة رسائل القديس كيرلس السكندري في مجلدين.

وإذا كانت حركة الترجمة والنشر تسير في نشاط في الغرب في كل معاهد اللاهوت والجامعات، ولكنها بطيئة جداً في الشرق. وحتى الكنيسة اليونانية وجدت نفسها مضطرة إلى إعادة نشر الآباء باللغة اليونانية المعاصرة؛ لأن اليونانية القديمة غير معروفة، وهي أشبه بلغة المعلقات السبع والشعر العربي القديم، الذي لا يمكن مقارنته بلغة الصحافة المعاصرة التي هي أسهل بكثير من شعراء العربية قبل الإسلام وبعده. ولذلك نقلت التراث الأرثوذكسي إلى اليونانية المعاصرة.

مأساة الدكتور القس صموئيل وهبة

درس الأستاذ مجدي وهبة في اليونان، وحصل على الدكتوراه في العهد الجديد، وعاد إلى القاهرة، وسُمِحَ له بالتدريس في الكلية الإكليريكية بالقاهرة، فظن أنه في معهد علمي على غرار المعاهد والجامعات التي درس فيها في اليونان كجامعات أثينا وتسالونيكي، يسمح بالرأي الحر. وذكر أن يهوذا تناول العشاء السري في العلية مع

التلاميذ، وهو تفسير يؤيده كل من ذهبي الفم – أوغسطينوس – أمبروسيوس – كيرلس الأورشليمي، كما ناقش اختلاف الآراء حول تناول يهوذا الاسخريوطي أكبر عالِم في الكنيسة الغربية، وهو توما الإكويني.

ولا شك أن مسألة تناول يهوذا هي نقطة تفسيرية لا تطرح صحة الإيمان على طاولة البحث، بل هي تؤكد محبة المسيح الذي غسل رجلي يهوذا – حسب اعتراف كل الآباء، الذين لم يكتفوا بذلك، بل أكدوا على أن يهوذا نال كل المواهب التي نالها الرسل.

وكان أن صدر قرار بمنع الدكتور مجدي وهبة من التدريس، وأشفق عليه الأنبا ديمتريوس أسقف سمالوط، وحمايةً له من مزيد من الغدر، سامه قساً بمطرانية سمالوط – وهي مسقط رأسه – ولكن موجات العداء وخطابات الكراهية ظلت تلاحقه حتى رحل أبونا صموئيل وهبة عن هذه الدنيا جريحاً – كسيده – في بيت أحبائه.

تلك صورة – بالإضافة إلى غيرها – ترسم المشهد القاتم القائم في الكنيسة القبطية، فكيف يجسر باحثٌ على أن يخالف "القطب الأكبري"، حتى وإن كان الخلاف لم يتعدَّ نقطةً تفسيرية لا تضر بالإيمان، وإن كانت تزعزع الثقة في عصمة "القطب الأكبري".

وهكذا كان قرار منع مجدي هبة من التدريس، هو في ذات الوقت قرار شمل ذهبي الفم نفسه، الذي يقول في عظة على خيانة يهوذا:

"الفصح اليهودي القديم قد أُبطل، والبصخة الروحية التي سلَّمنا إياها المسيح في ذلك الزمان، قد أخذت مكانة تلك. يقول الكتاب: وبينما هم يأكلون ويشربون أخذ يسوع الخبز وكسر، وقال: هذا هو جسدي الذي يكسر لأجلكم لمغفرة الخطايا. والذين انضموا إلى الكنيسة يعرفون هذه الكلمات (طبعاً نفهم من هذه العبارة أن القديس يوحنا ذهبي الفم كان يعظ في وجود الموعوظين، ولا يريد أن يعلن التعليم الخاص بالسر). وأيضاً قائلاً عن الكأس: هذا هو دمي الذي يسفك عن كثيرين لمغفرة الخطايا. وكان يهوذا

حاضراً عندما قال المسيح هذه الكلمات. هذا هو الجسد الذي بعته أنت بثلاثين قطعة من الفضة ... يا لمحبة المسيح الفائقة للجنس البشري، ويا لعظم جنون وانعدام العقل ليهوذا لأنه باع المسيح بثلاثين ديناراً، ولكن المسيح رغم هذا لم يرفض أن يعطي له غفران الخطايا، أي الدم نفسه الذي باعه يهوذا؛ لأن يهوذا كان هناك – حقاً – واشترك في المائدة المقدسة. وكما أن يسوع غسل قدمي يهوذا مع باقي الرسل، هكذا أيضاً مع باقي الرسل كان مشتركاً في المائدة المقدسة؛ لكي لا يكون له عذر في الدفاع عن خيانته التي ثبت فيها. فقد أعلن له مسيحه وقدم له (الغفران)، ولكن يهوذا تشبث بخطته الشريرة"[1].

هذا جزء من تراثنا الكنسي يعلن:

١– محبة المسيح الفائقة للخائن.

٢– عدم سقوط محبة الرب أمام سقوط محبة الخائن.

وهو مستوى عال، ورفيع جداً لم يستطع قادة العصر الذي نعيش فيه أن يطاولوه، ولذلك أنكروا تناول يهوذا مع باقي الرسل؛ لأن ذلك يساندهم في إصدار الأحكام القاسية ضد الذين يريدون أن يمنعونهم من التناول، وحتى تبدو أحكامهم وكأنها موازية لأحكام الرب نفسه، فيُسقطون صورة يهوذا على كل من يختلف معهم، فتتسلط القوة، التي لا تعرف المحبة، ويتسلط البطش والقتل المعنوي، وهكذا تسقط فيهم المحبة المصلوبة الباذلة.

---

(١) راجع النص اليوناني – مجلد ٤٩ – عامود ٣٨٠. وقد نشرت ترجمة انجليزية جيدة في كتاب رسالة آباء الكنيسة، مجلد ٧:

Daniel. J. Sheerin, The Eucharist, 1986. p 144 – 145.

راجع أيضاً العظة ٨٢ على إنجيل متى. ونفس الأمر نعرفه من سياق الكلام في العظة ١٤٢ على إنجيل لوقا للقديس كيرلس السكندري. وأيضاً القديس أغسطينوس في العظة ٥: ٨ على المعمودية.

هكذا وجدنا أنفسنا أمام حكم صادر ممن لا يعرف، وأمام سلطان بلا علم، وأمام كهنوت لم يفقد فقط المرجعية، بل والأبوة أيضاً، وهكذا طُرد ذهبي الفم مع مجدي وهبة، كما طُرِد أيضاً أثناسيوس وكيرلس مع غيره. وهذه هي المأساة الحقيقية.

تأخر حركة الترجمة في مصر وقضية دراسة التراث

ماذا فعلنا وماذا قدمنا من دراسات وترجمات لآباء الكنيسة، ولماذا تسير هذه الجهود بقوة وولاء جهات لا تجد التعضيد المناسب. جهود فردية أو جماعية. لماذا لا يوجد لدينا كرسي لأستاذ التاريخ الكنسي وآخر لآباء الكنيسة وثالث ورابع.. الخ.

هل نخاف من دراسة تراثنا. يبدو أن ما يحدث في الكنيسة هو صدى لما يحدث خارجها أيضاً.

لقد أثير هذا السؤال في مجالات عربية ودولية. وجاءت توصيات جامعة الدول العربية بإنشاء لجنة تجديد التراث العربي. ثم أعيد طرح السؤال عن أسباب الحجر على نشر التراث، وكلنا يعرف قصة الفتوحات المكية لابن عربي التي أثيرت في آخر عصر الرئيس عبد الناصر، ثم أعيد إثارتها من جديد. ويبدو أن نشر التراث العربي لشخص مثل ابن عربي يهدد مسار وحركة فكر معين، ولذلك تم الانقضاض عليه، ولنفس السبب تم الانقضاض على طه حسين ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ. أما ما قيل من اتهامات عن لويس عوض وغيره، فحدِّث عنه ولا حرج. والحقيقة الكامنة وراء كل ذلك هي أن هناك محاولات مستميتة لتجميد الفكر، لكي يبقى مستوى الحياة والسلوك كما هو غير قابل للتجديد. ويكفي أن نشير إلى أنه عندما جاء الغزالي بكتابه المشهور "إحياء علوم الدين" فقد كان يقصد بعث القوى الكامنة في التراث؛ لكي تُحرر العقل والقلب من الأوهام والمعرفة الكاذبة.

وهكذا يجب علينا أن نعود من جديد إلى قصة الشجرتين. شجرة الحياة، التي كان يجب على آدم أن يأكل منها أولاً، وشجرة الحياة التي يقدِّمها الأب متى المسكين

عبر درب واحد يجمع فيه كل علامات الطريق، الذي يؤدي إلى الحياة، الحياة في المسيح، لكي تصبح الحياة معرفة، والمعرفة حياة. ويتحد الحق والمعرفة معاً في يسوع المسيح ربنا.

ولأن حركة إحياء التراث لم تأت من داخل المؤسسات الكنسية، بل جاءت من مؤسسات لا صلة لها بالقيادة الكنسية، كان طبيعياً أن نسمع صرخات الخوف وصرخات التحذير، فهذه القيادات دائماً ما تشعر بالخوف من نشر التراث لأنه يطلق القوة الأساسية، التي تميز الإنسان بكل قدراته عن الحيوان بكل غرائزه، وهي "الفكر". وانطلاق الفكر يعني مزيداً من الحرية، بل إن إطلاق قوة التراث يضع أمامنا صورةً أخرى للحرية غير صورة الحرية التي نمارسها الآن. وهي صورة حرية الاختلاف دون نفي للآخر أو اتهامه بالهرطقة.

التراث والممارسة

عندما أشار الأب متى المسكين في كتاب "الإفخارستيا" إلى أن الجسد كان يقدم للمتناولين في أيديهم، لم يكن يطلب العودة إلى هذه الممارسة.

وعندما أشار أيضاً إلى وليمة الأغابي قبل التناول، لم يكن أيضاً يطلب العودة إلى ممارسة عرفها التاريخ الكنسي حسب شهادات تاريخية كثيرة.

ولكن هنا يجب أن نتوقف قليلاً أمام سؤال هام يطرح نفسه بقوة: هل حقاً أن اختلاف ممارسة عن ممارستنا تعني اختلاف الإيمان؟

عندما ذكر القديس باسيليوس الكبير أن العلمانيين كانوا يحفظون الإفخارستيا في منازلهم للتناول منها كل يوم، وعندما ذكر الشهيد يوستينوس أن الشمامسة كانوا يحملون الإفخارستيا للغائبين؛ لأن غياب هؤلاء يعني أنهم إما في السجن تمهيداً لاستشهاد أو أنهم مرضى يحتاجون إلى رعاية، هل هذا يجعل الإيمان بالإفخارستيا مختلفاً؟

إن أي عاقل لا بُد وأن يُدرك أن ما حدث في التاريخ كانت له الأسباب الواضحة، وأن الممارسات لا تجعل الإيمان مختلفاً.

كما أن حَمْل جسد الرب ودمه بواسطة أي إنسان لا ينزع عن السر قداسته، ولا يعطي لمن يحمله قداسةً أكثر؛ لأننا جميعاً ننال تقديساً واحداً حسب كلمات التقوى الأرثوذكسية "قدساً لقديسيك" (صلاة استدعاء الروح القدس – القداس الباسيلي). وإذا وضعت الأسرار في أفواه أو في أيدي المتناولين، فهذا لا يجعل أسلوب أو طريقة التناول سبباً لاختلاف الإيمان. هكذا أيضاً الاختلاف بين الممارسة كما سادت بعد القرن الخامس والممارسة كما هي الآن. نحن لا نعرف الظروف الموضوعية التي أدت إلى هذا التطور، ولكن هذه الظروف لا تعني أن الإيمان هو الذي تطور، بل تجعل الممارسة متغيرة طبقاً لظروف العصر نفسه.

المعرفة الكنسية الصحيحة هي السلطة الحقيقية

كانت الدراسة الشاملة التي جاءت في كتاب "التدبير الإلهي"، تؤكد لنا تطور الممارسة في اختيار رئيس أساقفة الإسكندرية. وتؤكد من جديد ضرورة العودة إلى التراث والقانون الكنسي، لكي تتكون لدينا رؤية شاملة أحسن وأفضل تعطي حياةً جديدةً للكنيسة، وتعيد إلينا الثوابت. فما هو ثابت، هو المتصل بالإيمان وبالشركة؛ لأننا لا نملك إزاء وحدة الجسد الواحد أن نقدم عقيدةً أو ممارسةً تهدم هذه الوحدة.

ولكن في نفس الوقت عندما نلقي نظرة فاحصة على تراثنا الكنسي ونرى أننا نختلف مع عصر من العصور، فإن السؤال الذي يفرض نفسه لأول وهلة هو: هل هو اختلاف في العقيدة؟ والجواب قطعاً لا. والسؤال الثاني هل هو اختلاف في الممارسة؟ والجواب نعم. هل هذا يهدم وحدة الكنيسة؟ بكل تأكيد لا، فقد أُبطلت عادة أو ممارسة وضع جسد الرب في أيدي المتناولين كما، أُبطلت عادة أو طقس تناول الكأس من يد الدياكون – حسب التراث الكنسي المعروف لنا في كتابات الرسامات الخاص بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية – ولم تحدث ثورة ولم تنقسم الكنيسة ولم تعتبر هذه بدعة.. الخ. فهذه هي اتهامات الأصولية واتهامات الخوف من المعرفة، وبالأكثر هي

اتهامات من يظن أن وضع الجسد في أيدي المتناولين ينقص من قداسة الأسرار. كأن المسيح رب الحياة والموت الجالس على الشارورييم يحتاج إلى حماية ورعاية البشر، أو أنه ضعيف إلى الحد الذي سوف يتدنس فيه لو لمسه يد متناول. مع أنه يدخل حسياً وروحياً إلى أعماق الإنسان التي مهما كانت، فهي غير طاهرة حسب كل صلوات القداسات الأرثوذكسية.

وإلى عهد قريب كنا نتناول في الهياكل، ثم أُبطلت الممارسة. وإلى عهد قريب كانت العظة تقال في التوزيع وليس بعد الإنجيل. وتاريخ الأصوام يؤكد لنا أننا نصوم أكثر من الذين صاموا قبلنا. ولم نفقد بدراسة التاريخ الإيمان بأهمية الصوم.

المعرفة الكنسية لا تأتي من السلطان أو السلطة مهما كانت. ولم يدوِّن لنا المؤرخون مثل سوزمين وسقراط وابن المقفع كل شيء. ولكنهم تركوا فراغات كثيرة تمكَّن علماء التاريخ من ملء بعضها من الوثائق المسيحية أو غيرها. فالإنسان إنسان لأن له تاريخ، ولو استطاعت الحيوانات أن تضع كتاباً عن حياتها لتقدَّمت وتغيَّرت، ولكن التاريخ مثل فروع المعرفة الأخرى يحتاج إلى دراسة وإلى حرية اختيار. وقوة المسيحية في أنها رسالة لم تقم على طقوس، بل على الإيمان، وما الطقوس سوى وسيلة لا غاية. وعندما تصبح الوسيلة هي الغاية نقع في أشر خطية، لأن الوسيلة هي الغاية في المسيح فقط. ولكن تبقى العلامات والرموز والصلوات وكل الممارسات، وسائل تقربنا من الله، ولكنها ليست الله نفسه. وعندما تختلف صلوات الصلح، بل والأنافورا من قداس إلى آخر، فإن العلامة الظاهرة هي، أن الكلمات أعطيت لمعونة الإنسان ولذلك تتغير وتختلف، ويبقى القداس الذي يخاطب الابن المختلف عن القداس الذي يخاطب الآب (الغريغوري – الباسيلي) هو وسيلة، ولكن الغاية واحدة.

القمص متى المسكين كظاهرة مصرية

قديماً انقض الكهنةُ على إخناتون، وضاعت رسالة التوحيد في خضم الصراع بين المؤسسة الدينية والقصر الفرعوني؛ لأن عبادة آتون كانت هي في حد ذاتها انقضاض فكري على تعدد الآلهة، وفي ذلك إضعاف لنفوذ الكهنة. ويعتبر بعض المؤرخين أن هذه هي أول ظاهرة "للأصولية" في تاريخ مصر. وكما قلنا من قبل جاءت النهضة المصرية مع بعث الشعور الوطني المصري ومع تطور التعليم وإنشاء الجامعات... ولم تكن مسيرة سهلة بلا عوائق، ووجهت اتهامات كثيرة لكل الرواد دون استثناء.

ولكن تبقى القضية الوطنية الواضحة هي مَن يقرر؟ ولماذا يقرر؟ وما هي أهداف القرار؟

والقرار هنا هو عرض التراث برمته كاملاً دون نقص، والجرأة على مخاطبة الفرد والجماعة والدعوة إلى أن تكون الحرية هي قاعدة الممارسة. والسلطة السياسية أو القوة الاقتصادية أو التجمعات الشعبية أو السلطة الدينية لا تملك أن "تشطب" التراث أو تمنع نشره مهما كانت الحجج. والادعاء بأن نشر التراث يسبب بلبلة هو ادعاء لا أساس له؛ لأن البلبلة كائنة بسبب ضعف التعليم واختصار التعليم في الواجبات الطقسية وإهمال النمو الروحي والفكري. ومتابعة هذا النمو هو العمل الكنسي الشاق الذي لا يحتاج إلى سلطان، بل إلى الثقافة والحوار والبحث والتربية. هكذا يبدو على السطح أن هناك خلافات بين الأب متى المسكين وغيره، ولكن أعماق المشكلة هي في الثقافة السائدة في المجتمع، ونمو السلطة الدينية على حساب المعرفة، وجرأة السلطة الدينية على اختصار التاريخ والادعاء بأن ما لدينا هو كله من عصر الرسل، بل ومن الرب نفسه، بينما يشهد التاريخ أن أكثر القداسات استعمالاً يحمل أسم أسقف من القرن الرابع هو أحد أبطال الإيمان، وهو القديس باسيليوس، وهو أمر جدير بالاعتبار لأنه يقول لنا إن التاريخ يحمل لنا ثوابت الإيمان، وأن التسليم ليس في نص أو أكثر، بل في روح البشارة. وعندما أضاف الآباء الكلمة اليونانية "المساوي للآب في الجوهر"، والأصح "الواحد مع الآب،

أو الذي من ذات جوهر الآب"، وجاءت الإضافة بعد ٣٢٥ سنة من انتشار المسيحية، كان ذلك دليلاً تاريخياً باهراً يؤكد لنا أن التسليم يتجه دائماً إلى الأمام، وقد يكون التقدم إلى الأمام بإهمال عادة أو ممارسة أو بتبني عادة جديدة – مثل لبس الشملة في خدمة القداسات – وهي الآن أكثر ذيوعاً وتعود إلى رئاسة البابا كيرلس السادس ولها جذورها في طقس الأديرة. هذا مثل وضع التناول في يد المتناولين، ندرسه ونقرأ أصوله التاريخية ونتركه كفصل في التاريخ، يؤكد لنا حرية المسيحي في لمس طعام الحياة الذي يدخل فمه ويملأ كيانه وهو يسمع: "خذوا كلوا هذا هو جسدي". والإنسان لا يأكل طعاماً يوضع في فمه، بل يأخذه في يده، ولكن تدهور الحياة الكنسية قد يؤدي في بعض الأحيان إلى إبطال عادات معينة. من ذلك ما نقرأه في بعض عظات القديس أمبروسيوس عن عدم تناول الإفخارستيا والاحتفاظ بها في علبة معدنية تعلق بسلسلة حول عنق البحارة بشكل خاص، بالرغم من ارتيادهم للمواخير في الموانى وارتكابهم الفواحش، فكان إذا تعرض أحد منهم للخطر يأكل أو يتناول جسد الرب المعلق حول رقبته لكي يضمن غفران الخطايا وميراث الملكوت. ولعل هذا كان هو أحد الأسباب التي أدت إلى إهمال هذه العادة، رغم أنها كانت طريقة التناول الوحيدة المعروفة شرقاً وغرباً. واختفاء هذه الممارسة من الشرق والغرب هو دليل على تدهور الحياة الروحية مما أدى إلى وضع التناول في فم المتناولين. وأوريجينوس وكيرلس الأورشليمي وكيرلس السكندري هؤلاء شهود من الشرق الأرثوذكسي لا من الغرب ولا علاقة لهم بالكنائس الغربية سوى أن كتاباتهم نُشرت وعُرفت ودُرست في الغرب.

المنهج والمعطيات

يقول شيخ المؤرخين المعاصرين أرنولد توينبي: "إن دراسة التاريخ تزعج الفاشية وكل حركات القهر وكل أنظمة الاستبداد؛ لأنها تقدم صوراً متعددة عن الحياة الإنسانية

وهو ما يخشاه الاستبداد والقمع، لأن التاريخ يغرس في الإنسان القدرة على البحث والرغبة في التساؤل".

وهكذا، ليست المسألة أصلاً هي ما إذا كان القديس باسيليوس قد ذكر أو لم يذكر في رسالته رقم ١١٢ أن عادة المصريين هي الاحتفاظ بالإفخارستيا في منازلهم وتناول الإفخارستيا كل يوم. ليست لدينا مشكلة في تقديم النص اليوناني، فهو موجود في الطبعة الدولية لرسائل القديس باسيليوس. المشكلة تبدو في أننا لا نعرف كيف نتعامل مع التاريخ الكنسي الذي لم ندرسه ولا نريد لغيرنا أن يدرسه. ودراسة التاريخ لا تعني أن "نشطب" على ما لدينا الآن، فهذه عودة إلى خرافة العصور الذهبية!

في المسيحية، كل العصور عندنا هي عصور ذهبية.

ولكن، هنا بالذات، أي تحت جلد الهجوم على الدراسات التاريخية، تنام رؤية أوطاخي للتاريخ الكنسي؛ لأن التعليم الذي تبناه أوطاخي بطبيعة واحدة (غير مُتجسِّدة) ينفي إتحاد اللاهوت بالناسوت، وهو بدوره ينفي الدور الإنساني في التاريخ ويحول التاريخ كله إلى حركة إلهية واحدة لا يدخل فيها العنصر الإنساني. وقد انعكست الأوطاخية على قراءة العهد الجديد، ليس فقط في فهم معاني الكلمات، بل في اعتبار العهد الجديد والأناجيل الأربعة مجرد "تنزيل"، بينما يحمل كل إنجيل اسم كاتبه. والرقم (٤) يؤكد لنا أننا لا نملك كتاباً منزَّلاً، بل نملك شهادةً وبشارةً أو خبراً لا يمكن حصرها في لغة أو نص. لأن المسيحية هي ديانة الإله المتجسد الذي يدعونا إليه الأب متى المسكين والذي يقف مع القديس باسيليوس على نفس أرض "التسليم" الذي يُعلن: "المسيح الإله المتجسد"، وحيث يُعلن الروح القدس لكل مؤمن "سر المسيح".

هذا هو ملخص كتاب "الروح القدس" للقديس باسيليوس، وهو جوهر كل ما كتبه الأب متى المسكين في كل مجلدات شرح أسفار العهد الجديد وأعياد الظهور الإلهي. فهذه هي رسالته في عصر الجفاف الروحي، الذي لو سمحنا له بأن يرفع مؤلفات الأب

متى من على رفوف المكتبات، لَما بقي على هذه الرفوف شيئاً يدعونا إلى الإيمان أو حتى احترام الفكر والبشر أنفسهم.

هكذا يريد الأب متى المسكين أن يقول لنا: إن الإيمان واحد، والعقيدة واحدة عبر العصور. وما الطقوس إلاَّ وسيلة تقربنا، والممارسات ليست غاية؛ لأن جوهر الإنجيل هو يسوع المسيح. واختلاف الممارسة لا يعني اختلاف الإيمان.

وثائق التاريخ والإيمان بالمسيح

إن نشر وثائق التاريخ، هو عمل علمي يعبِّر عن قداسة حقيقية وأصالة، وإصرار على الأرثوذكسية. فهذه الوثائق تؤكد لنا أن الذين سبقونا في الإيمان والقداسة كانت لهم إرادة وقوة وعزم على المسيرة مع المسيح وبالمسيح، وأنهم كانوا على شوق جارف للاقتراب منه، على قدر ما تقوى عليه الإرادة الإنسانية وتسمح به نعمة الله الآب في ابنه ربنا يسوع المسيح.

ودراسة التاريخ تؤكد أننا جميعاً لنا مساهمة في صنع التاريخ، وإننا نساهم بما نملك وبما نرى وبما نحب، وأن هذه المساهمة نابعة من ذات إيمان الذين سبقونا.

أما الإصرار على تجاهل التاريخ، ومحاربته والقضاء عليه، فهو محاولة لإنكار الانتماء إلى الزمان والأرض والشعب صانع التاريخ. هو إنكار للتجسد قبل أن يكون إنكاراً لما تعلنه هذه الوثائق؛ لأن تجسد ابن الله سلَّم الزمان إلينا، وسلَّم إلينا صُنع القرارات التي نرتلها في صلواتنا، أي قرارات مجمع نيقية ٣٢٥م، والقسطنطينية ٣٨١م، وأفسس ٤٣١م وغيرها من قرارات مجمعية.

فقد جاءت جهود السابقين تعلن لنا أنهم يكملون المسيرة، وأنهم يضيفون إلى فكر الإنسان ومعرفته ما يثبِّت الإيمان ويقويه. وعلينا نحن أيضاً أن نضطلع بدورنا، فلا نكتفي بدور المتفرج الذي يشاهد شيئاً بعيداً على مسرح بعيد غارق في القدم، بل دور "المساهم" الذي يقف على ذات المسرح ويعلن أنه يقدم الجديد. وقد قال الرب بفمه

الإلهي الذي لا يكذب: "يشبه ملكوت السموات كاتب متعلم يخرج من كنزه الجديد والقديم".

وهكذا، ندرس العادات والعرف والسلوك والرؤية والاعتراف بالإيمان. وندرس معها حقيقة انتماء السابقين للمسيح، وشهادتهم لكي نتبعهم في زماننا، ولكي نثبِّت ما هو أزلي – أي الإيمان – ولكي نفرز العادات التي خرجت من جوف الزمان والثقافة، ولكي ندرك ما هو أصلح وأجدى لزماننا، فالإيمان هو الجوهر، ودراسة السلوك والعرف هو المظهر. أما أن نُجاهر بأن كل شيء عندنا ثابت لا يتغير، فهو إنكار لدور الإرادة الإنسانية ودور الروح القدس نفسه الذي ينير الإنسان، ويدفعه إلى التمسك بالمسيح، ويعطي له أن يطوِّر عاداته، وأن يغيِّر العرف من أجل تقدم المحبة نحو ما هو أفضل.

هكذا ندرك كيف تكيَّف الأقدمون مع عدم وجود الكهرباء، ولا ماكينات رفع المياه ولا السيارات... الخ وبالتالي نشأت عادات وأعراف تتفق مع هذه الوضع. أما نحن فإننا ندرك أن الزمان جاء بالجديد، وأننا يجب أن نختار الجديد من أجل تقدمنا ومسيرتنا. ونفس الشيء يجب أن يطبق على العبادة والصلاة، أي الاختيار من أجل المحبة ومن أجل الثبات في الإيمان لا من أجل التشبُّه بهذا أو ذاك، لا من أجل الوقوف عند قرن من قرون التاريخ لكي نقول إنه الأفضل؛ لأن هذا يعني أن الروح القدس نام أو غاب عن الكنيسة وعن العالم، ولم يعُد ينير قلوب المؤمنين بنور الإيمان لاختيار ما هو أفضل وما يلائم العصر، ومستوى السلوك. فالذين كانوا يأخذون الإفخارستيا في أيديهم، كانوا يملكون ذات الإيمان، ولكن اختلفوا في طريقة التناول كما اختلفوا عنا في الملابس وطهي الطعام واللغة وترتيب الحياة الرهبانية. فلا مجال لمقارنة حياة وأسلوب آباء البرية في زمان القديس أشعياء الاسقيطي على سبيل المثال بما نعرفه اليوم، أي في القرن الحادي والعشرين عن الاسقيط. ومع ذلك، فإيمان أشعياء الاسقيطي هو ذات إيماننا. والقديس مكاريوس الذي أدب نفسه بالجلوس في مكان يكثر فيه البعوض لم يفرض علينا هذا السلوك، لأن البعوض ينقل الكثير من الأمراض للإنسان، وهو أمرٌ لم يكن معروفاً.

خلاصة القول، إن السلوك الإنساني لا يجب أن يُفهم على أنه "تنزيلٌ" سماويٌ إلهيٌ لعادات وممارسات تمس الإيمان؛ لأن جسد الرب في أيدي الشمامسة والمتوحدين والذين كانوا في السجون هو ذاته جسد الرب الذي هو عندنا على المذبح والذي نأخذه بأسلوب آخر لا يمس ولا يقلل من الإيمان نفسه.

أمَّا الطامة الكبرى والمصيبة الأكبر هو أن نظن أننا أمام عادات أمر بها الله، وأن القداسة هي في إطلاق الذقون والشوارب ولبس اللون الأسود، إلى غير ذلك من عادات اجتماعية بحتة.

أمَّا الدعوة إلى العودة إلى عاداتٍ سبق أن سُجِّلت في التاريخ، فلا يجب أن تخرج عن معناها الصحيح، أي باعتبارها دعوة للدراسة لكي نفهم ونستوعب ما هو غائب عندنا وهو:

أولاً: دراسة التاريخ الكنسي.

ثانياً: ما هو أكبر وأعظم من التاريخ، بل الموضوع الأول الذي لأجله كتب التاريخ الكنسي، وهو إيمان السابقين.

ثالثاً: الموضوع المتفرع عنه، وهو الحرية التي عاشها هؤلاء في ظل ظروف الاضطهاد، وفي ظروف ترتيب الحياة النسكية القديمة التي لم يكن فيها تليفون أو سيارات قادرة على أن تسير في الرمال. وغارات البدو الرحل من ليبيا وجنوب الوادي والتي تركت لنا الحصون في كل الأديرة تشهد للتاريخ الذي عاشه السابقون بكل ما فيه "واحتفظوا لنا باسم الفادي" كما تقول ترنيمة كنسية معروفة.

أما الدعوة إلى رفض التاريخ، فليس لها إلاَّ هدف واحد وهو "تجريم المعرفة" وحصر الممارسات الحالية التي نشأت في داخل التطور الثقافي غير المسيحي، والتي تجعل القانون أو الشريعة هو قاعدة الحق. بينما الحق هو المسيح الذي لم يقل أنا العرف أو العادة أو القانون أو الشريعة، بل قال "أنا هو الطريق إلى الحياة الحقيقية" حسب نصنا القبطي القديم، أو "أنا هو الطريق والحق والحياة" حسب الأصل اليوناني.

ومن يقتني المسيح في المعمودية، وحسب نص الاعتراف بالإيمان في خدمة المعمودية: "ألتصق بك أيها المسيح إلهي وبكل شرائعك المحيية"، أي شريعة روح الحياة في المسيح، يكتشف أن هذه الشريعة هي الحرية الكاملة التي لا تقف عند نص أو ممارسة لكي تؤسس عليها الحق. لأن هذا يعني أن الشريعة مهما كانت قد حلت محل المسيح.

في حديث للأب متى المسكين – لرهبان الدير لم ينشر – عن الروح القدس، نجده يحصر شهادة الروح في الشهادة "للحق"، وهو هنا – كما كان دائماً – "المسيح يسوع" ويؤكد فيه على أن يكون المسيح هو الهدف في كل ممارسة. هذا أيضاً سبق نشره في كل المجلدات التي تشرح أسفار العهد الجديد مثل شرح رسالة غلاطية وإنجيل متى وإنجيل يوحنا. هذه الحقيقة لا يجب أن تغيب عن قلب المؤمن، أن الممارسة – أياً كانت – هي السلوك البشري إزاء الرب يسوع، وهو سلوك المحبة والخضوع للإيمان، وليست سلوك الاستهتار أو التجديف أو النيل من كرامة الرب. لقد جاء الرب يسوع المسيح لكي يقدِّس كل أعضاء الجسد الإنساني، حسب التعليم الآبائي، وحسب الإيمان نفسه، ولذلك لا يوجد عضو في الجسد بعد سر المعمودية ورشومات سر الميرون والتناول من جسد الرب ودمه، وهو سر الأسرار، نعم لا يوجد عضو أكثر قداسة أو أقل قداسة. والقداسة ليست شيئاً يمكن للمياه أو إفرازات الجسد أن تمحوها؛ لأن المعمودية والميرون هما ختم الروح القدس الأبدي للخلاص الأبدي. وسلوك الإنسان حسب وصايا الرب وحسب الطبيعة التي خلقت، ونالت الفداء بالمسيح، لا يمحو القداسة. ولذلك السبب لا يعطي الاستحمام بالماء قداسةً، بل نظافة، والفرق هائل. لأن عمل الروح القدس لا يُستمد من الخليقة، ولا من أي عنصر مخلوق؛ لأن هذا يعني أن الروح القدس مخلوق إذا أعطي التقديس لنا من عناصر مخلوقة، لأنه كما لو كان يستمد القداسة من المخلوقات أو أنه مثل المخلوقات يأخذ لكي يعطي. ولكن الإيمان القويم أنه يعطي الكل حسب صلاحه حسب كلمات التقوى: "وأرسل إلى أسفل من علوك المقدس. البارقليط روحك القدوس الكائن بالأقنوم. الرب المحيي... الفاعل بسلطة مسرتك الطهر (التقديس

mpitoubo) على الذين أحبهم وليس كالخادم (وليس كمن يخدم) ... ينبوع النعمة الإلهية... شريك مملكة مجدك وابنك الوحيد... "[1].

وحتى عندما نفقد الإحساس الروحي والإيمان بأننا أخذنا التقديس من الآب بالابن في الروح القدس حسب تعليم الآباء، لا يصبح التقديس شيئاً زائلاً تمحوه الاغتسالات بالماء؛ لأن حتى الكاهن بعد أن يغسل يديه "في صينية سر الشكر"، فهو لا يغسل التقديس الذي ناله من الثالوث؛ لأن الاستعمال اليومي الإنساني لليدين لا يقضي على نعمة التقديس. فهل انتقلت إلينا من الثقافة المعاصرة والعادات الاجتماعية في المجتمع فكرة زوال نعمة الله وتقديس الروح القدس بعد الشركة في الأسرار بمضي الوقت أو بممارسة أعمالنا العادية. يقول الرب لتلاميذه في عُلية صهيون "الذي اغتسل"، وهنا يشير الرب إلى الاغتسال الداخلي الذي نالوه بالتعليم وسماع الحق نفسه، وهو يعطي كلمة الحق في التعليم "تعرفون الحق والحق يحرركم" (يوحنا ٨: ٣٢).

لقد سادت فكرة شائعة بين العامة وغير الدارسين، مؤداها أن الاتحاد بالرب في الإفخارستيا ينتهي بعد ثلاثة أيام، وأنه بعد ثلاثة أيام يجوز الاستحمام.. الخ. ولم نجد هذه الفكرة لا عند الآباء، ولا في القانون الكنسي الذي بهذه المناسبة لا يحرم ولا يمنع وضع الجسد في اليدين. ومما لا شك فيه أن الثقافة السائدة أخذت تغزو الممارسات القبطية، وتعيد تشكيل هذه الممارسات بما يحفظ القبطي من النقد واللوم. لكن هذا يحمل في داخله هدماً لأهم ما جاء به المخلص، وهو ما يجعلنا في حاجة ماسة إلى دراسة وضع الجسد الإنساني ومكانه في تدبير الخلاص بعد تجسد الرب وموته وقيامته والذي قدسه الرب حسب شهادة القديس أثناسيوس وحسب شرح الأب متى المسكين.

---

(1) الأفضل هو "أرسل إلى أسفل.. أقنوم البارقليط روحك القدس"، ولكن تركنا ترجمة أولاد العسال كما هي.

التقديس بالروح القدس

لعلنا لم نخطئ عندما رفضنا بمحبة وصدق التعليم الذي ذاع في خلال الـ ٢٥ سنة الفائتة وربما أكثر، بأننا نأخذ مواهب الروح القدس فقط، وأن أقنوم الروح القدس لا يحل ولا يسكن فينا. وتحت هذا التعليم غير الأرثوذكسي توجد ثلاثة مبادئ هدامة، تهدم الإنجيل كله وتخلع الخلاص من جذوره:

١– تقييم الإنسان كساقط وخاطئ بعد حصوله على أسرار الانضمام لجسد المسيح الكنيسة، أي إنكار تحول الطبيعة الإنسانية إلى طبيعة جديدة واعتبار أن الخطية تسود على نعمة الله التي هي بلا ندامة (رو ١١: ٢٩).

٢– اعتبار أن الأسرار ممارسات زمانية بائدة تبيد بمرور الزمان مثل الملابس والطعام... الخ وهذا ينفي عنها أنها إعلانات شركتنا في الابن بالروح القدس، وأن لها فاعلية أبدية إما للدينونة وإما للخلاص الأبدي.

٣– اعتبار الجسد عنصر حقير نجس بائس وأنه هو المشكلة الأولى والأخيرة في علاقة الإنسان بالله – هذا رغم تجسد الابن له المجد، ورغم نداء الكنيسة في عشية الأحد "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

على أنه إذا كان من السهل علينا أن نفهم أن الثقافة السائدة لا تعطي للإنسان مكانة حقيقية، حيث يظل الرجل البالغ صاحب الأسرة هو "العيّل" أمام والده، وتظل المرأة البالغة المتزوجة "هي البنت" التي لا تفهم شيئاً في الدنيا.. الخ لاسيما إذا كان أحد الوالدين يتمتع بنفوذ وطغيان واستبداد يجعله "غضنفر" أو "الأسد"، وهو أمر يتصل بشكل مباشر بكل ما تحمله الثقافة من تهديد ووعيد وعقوبات لمن يفشل أو يحاول أن يكون له رأي ما... الخ. فمن السهل أيضاً أن نفهم أن كل ذلك قد انعكس على الحياة الكنسية نفسها، فصار الإنسان شخصاً خاطئاً مسكيناً لا يحظى بشيء، وعليه أن "يلحس التراب" حتى يستطيع أن يقترب من المسيح، ولذلك السبب جاءت كتابات الأب متى المسكين ذات طعم غريب على أفواه الذين فهموا المسيحية من خلال الثقافة

السائدة، بعكس رائد هذا الجيل الذي فهم الثقافة من خلال الأرثوذكسية، وأبعد وأفرز كل ما تحاول الثقافة السائدة غرسه من قهر وإنكار لمكانة المسيحي في المسيح يسوع.

أما ما هو جدير بأن نقف عنده برهة طويلة، فهو نظرتنا إلى أسرار الانضمام (المعمودية – الميرون – الإفخارستيا) واعتبار هذه الأسرار ممارسات بائدة زمانية وقتية تنتهي بالقدم وتفقد فاعليتها بعد انتهاء الخدمات الكنسية.

النتائج:

لعل أخطر هذه النتائج هو رفض الانتماء التاريخي للأرثوذكسية، والتشيع لشخص معين لهدم وحدة الكنيسة لكي تصبح مجموعة من "الشيع". لكن ما هو أخطر؛ هو أن نغلق باب البحث أمام الأجيال الآتية. ويعتبر أكبر باحث نال أكبر نصيب من اتهامات كاذبة ظلت تلاحقه قرابة نصف قرن هو القمص متى المسكين. لكن – في المقابل – سنرى عبر الصفحات اللاحقة أن أخطر تراجع عن الأرثوذكسية، هو اعتبار الرأي والتفسير الشخصي هو المرجع الأول والأخير، وكذلك "تأثيم" كل محاولة لعرض ما جاد به علينا التاريخ الكنسي نفسه. بل إحاطة ترجمات الآباء بالشك والريبة واتهام المترجمين بعدم المعرفة أو الجهل بالكتابات الآبائية، لكي تظل للثقافة الكنسية غير الأرثوذكسية مكانة الصدارة.

الفصل الثالث

ثلاثة أمور حاضرة، وثلاثة أخرى غائبة

١– الثلاثة الحاضرون معنا

أردنا أن يحمل هذا الفصل بالذات رسالة لكل قارئ مهما كانت أفكاره وانتمائه وإيمانه، لأننا درجنا على قبول ثلاثة أمور هي حاضرة معنا دائماً:

أولاً: تراث السماع

والسماع هو ما ينقل من الفم إلى الأذن مباشرة وينتشر بسرعة لأنه خاص بأسلوب "التجمع"، وانقسام المجتمع إلى جماعات متباينة أو متفقة. نحن نسمع الكثير. وبالرغم من أننا تكلمنا بما فيه الكفاية عن هذا الموضوع في الفصل الأول، وأوردنا بعض أمثلة على ما يسود منها من أدب شعبي، إلاَّ أنه ليس هناك ما يمنع من أن نضيف إليها هذا المثال الهام. فقد درجنا على أن نسمع من الجيل السابق أن عيد القيامة كان يحتفل به مرة كل ٣٣ سنة، وأن الكنيسة من أجل محبتها للرب ومن أجل الفرح بقيامة المخلص نقلت العيد إلى احتفال سنوي. وصدقنا هذه "المعلومة" حتى بدأنا نقرأ الآباء والتاريخ الكنسي، بل وعندما برز موضوع القراءات الكنسية ودراسة القطمارس أدركنا أن عيد القيامة هو يوم الرب أو يوم الأحد على مدار السنة، وأن إنجيل باكر خلال كل السنة الطقسية هو دائماً خاص بقيامة الرب، بل وأن ختام "الهيتنيات" تُقال في يوم الأحد "لأنك قمت وخلصتنا". وجاءت دراسة التقليد أو التسليم الرسولي للقديس هيبوليتوس أو ما يعرف باسم "قوانين أبوليدس" لتؤكد لنا الاحتفال السنوي بقيامة الرب. وهو ثابت

أيضاً في الدسقولية، وقوانين الرسل، وغيرها من الوثائق الكنسية، ومدونات الأجيال الأولى.

ومن كل ما تقدم يتبن لنا أن تراث السماع يشكل خطورة كبيرة على الثقافة لأنه يكاد يحمل تحذيراً بعدم الدراسة، وبعدم التدقيق أو التحقيق فيما نسمع ولذلك كانت المجتمعات المتقدمة ثقافياً تعمل دائماً على نشر التراث وفحص وتمحيص الأفكار. وما حدث في أوربا في العصور الوسطى ليس غريباً عما نقول، فقد كان الاعتقاد السائد في أوروبا في هذا الوقت — استناداً إلى التراث السماعي – أن الأرض مسطحة رغم أن أرسوطاليس بالذات قال أنها كروية قبل جاليليو وكوبرنيكوس، ومع ذلك ظل تراث السماع أقوى من الوثائق، حتى في جامعات أوروبا، إلى أن جاء دور تحقيق الأفكار والمعتقدات بمجيء عصر النهضة.

ثانياً: دورات الأكاذيب

لم تظهر في مصر دراسة عن ظاهرة الكذب في المجتمع المصري، ولكن كان أقرب ما صدر في مصر هو مقال فريد للدكتور مأمون فندي نُشِرَ في الأهرام اليومي[1]، والمقال يحتوي على الكثير من الملاحظات عن سلوك الفرد والجماعة. ودورة الأكاذيب ليست قاصرة على ظاهرة "العمران"، أي عمران القرية، وهو غير عمران المدينة، كما ذكر الدكتور مأمون فندي، بل هي ظاهرة عامة حتى في الخطاب الديني نفسه، الذي يعتمد على تراث السماع وعلى جمع الأتباع، وحشد المريدين، وأحياناً الغوغاء، والتمسك بالكذب الذي يَنْسب إلى الشخص والأشخاص الذين نريد قتلهم معنوياً الأمور البشعة مثل السلوك الجنسي، والاختلاس، والردة عن الإيمان، والهرطقة... الخ. ويلعب الكذب دوراً كبيراً في الخطاب السياسي في كل مجتمع ولا يفلت منه دعاة الديمقراطية في الغرب بل هو أداة في يد القادة السياسيين في الأنظمة البوليسية.

---

(1) أنظر مقاله: في عمران الكذب والتجميع الفكري، في أهرام الجمعة الصادر في ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٣. وقد اتبعه بمقال آخر بعنوان: في عمران المصداقية والثقة، نشره في أهرام الجمعة الصادر في ٥ ديسمبر ٢٠٠٣.

ودورة الكذب تمر بثلاث مراحل: إطلاق الكذب، نشر الكذب ثم انحسار الكذب وظهور الحقيقة بعد أن يكون الكذب قد أدى دوره. والمثل الصارخ على ذلك ما أشيع عن وجود أسلحة دمار شامل في العراق الجريح، رغم أن كل شبر من أرض العراق كان تحت الفحص العسكري والعلمي بكل الأنواع.

وإذا عدنا إلى الخطاب الديني نفسه استطعنا أن نرى فيه ذات الدورات، أي دورة إطلاق الاتهام ونشر الاتهام، ثم انحسار التهمة أو الاتهام بظهور الردود. وليس أخطر على حياة الجماعة الدينية من الاتهام بالهرطقة دون بحث، ودون دليل، ودون محاولة الرجوع إلى المصادر، ولكن ما هو أخطر هو الاستعانة بما تقبله الثقافة السائدة في المجتمع، وهو انفصال الإنسان عن الله بشكل تام ومطلق؛ لأن التجسد وسكنى الثالوث في قلب الإنسان، موضوع مرفوض تماماً في ثقافة أي مجتمع يركن إلى القوة وحدها، وإلى سلاح البطش بالمعارضين، وإلى رفض الحوار. لأن الثالوث يبرز دور الشركة، والتجسد يؤكد كرامة الإنسان الأبدية، ونحن سوف نحيا إلى الأبد في شركة مع الثالوث، وفيه وبذات كرامة ابن الله نفسه، الذي تجسد إلى الأبد لكي ينقل الإنسان إلى كرامة تسمو على كل خلائق العالم المنظور. هذا موضوع غائب لأنه موضوع غير مقبول في أي مجتمع مهما كانت درجة ثقافته؛ لأن "عثرة الإنجيل" ستظل باقية في التاريخ طالما بقي في الإنسان كبرياء وعجرفة، وطالما بقي في قلب كل إنسان "إسقاط" *Projection* النجاسة والقصور على أخيه، رغم تحذير الرب: "اخرج الخشبة من عينك لكي تخرج القذى من عين أخيك" (متى ٧: ٥) وهو سلوك النفاق الذي تخلعه نعمة الله ولا تقدر كل وسائل الإعلام مجتمعة أن تقضي عليه، لأن الخطية لا تعالج بالقوة بل بمحبة الله، وتواضعه الذي يرفضه الإنسان، لأنه يدعو الإنسان إلى التخلي عن الكبرياء وقبول التواضع.

كان الأب متى المسكين مهتماً بالإفراز أو التمييز، وكان قد طرق الموضوع في عدة رسائل، وفي بعض عظات أيضاً. وفي الأدب النسكي وأقوال آباء البرية نجد تحذيرات

قاطعة عن إدانة الآخر، بل حتى المعلم اليهودي يقول في إنجيل يوحنا إن الناموس أو شريعة موسى لا تسمح بأن نحكم على إنسان لم يُسأل (لم نسمع منه)، ومن ينقل إشاعة أو خبراً مهما كان مصدرها يقع في ذات الخطية التي وقع فيها الذي أطلق الإشاعة أو الكذب. ولذلك يحذرنا القداس الإلهي (الكيرلسي) من النميمة.

وهكذا بالسماع ونقل الأكاذيب نغلق على أنفسنا باب بحث الحقائق ونقع أسرى للعمى الروحي أو الفكري، وكثرة الاتهامات تؤكد لنا انعدام "ميزان الإفراز". أما إغلاق باب البحث، فإنه يفقدنا رؤية الماضي والحاضر والمستقبل لأننا لا نريد أن نتعلم الحقائق أو نناقشها وهو ما يغلق علينا باب الحياة نفسه.

ثالثاً: شيطنة *Demonization* الآخر

يحتل إبليس أو الشيطان مساحة هامة في تراثنا الشرقي الأرثوذكسي، والدليل على ذلك هو أن أطول خطاب عن الشيطان في كل كتابات الآباء، هو عظة القديس أنطونيوس الكبير[1]، الذي لم يكن يخاف الشيطان بالقدر السائد عندنا الآن، ولم يكن يجهل أفكاره حسب عبارة الرسول بولس (٢كو ٢: ١١). أمَّا شيطنة الآخر والآخرين فهي تعني البحث الدائم عن العدو. وهكذا نحن نحدد العدو دائماً حسب:

١ – احتياجات شخصية مؤقتة، ولأهداف أو هدف نريد به إقصاء الآخر عن كل علاقة ممكنة، لأن الآخر شيطان، وعدو لدود وخطر... الخ ذلك من عبارات عامة مطلقة تؤكد عموميتها أنها بلا دليل؛ لأن كل العبارات العامة غير المحددة، والعبارات المطلقة تعلن أننا إزاء خوف وبغضة وكراهية، ولسنا أمام حقيقة؛ لأن الحقيقة لا تقال بشكل عام، بل بشكل محدد.

---

(١) راجع الرسالة السادسة لأولاده الرهبان المقيمين في الفيوم يعرفهم فيها قتالات الشياطين ومعونات القوات المقدسة ويحثهم على الصبر وتكميل ما خرجوا إليه بسلام الرب. رسائل القديس أنطونيوس بحسب النص العربي المخطوط، دير القديس أنبا مقار، برية شيهيت، مايو ١٩٧٩، ص ٦٣: ٨٨.

٢– البحث عن عدو ظاهر، قد يكون الاستعمار والغرب وأمريكا، وهو عدوٌ تأصلت كراهيته بسبب الصراع الوطني ضد الاحتلال، وبسبب موقف أو مواقف أوروبية وأمريكية من قضايا بالغة الأهمية في حياتنا الوطنية تداس تحت أقدام الساسة، والذين يملكون القوة العالمية. ولذلك توصف الشياطين الجديدة التي نخترعها في وسائل الإعلام وفي الخطاب الديني بأنها غربية، ولذلك ليس غريباً أن يشيع الأنبا شنودة الثالث هذه التهمة، فيقول إن مراجع البحث غربية، وأن الكاتب ينقل من كتب غربية، دون أن يذكر اسم كتاب واحد أو مؤلف واحد غربي نقل عنه مؤلف معين.

نحن لا نبحث هنا في موقف الغرب من القضايا الوطنية؛ لأن هذا معروف لنا، ولكننا نريد أن نضع أمام القارئ السبب الواضح الذي يجعل الخطاب الديني ينقل السلاح السياسي، الذي له دور في الصراع الوطني إلى ساحة الحياة الدينية، محاولا أن يجعل القضية أو القضايا، الرأي أو الآراء، البحث أو الأبحاث جزء من صراع سياسي، بينما هو جزء من صراع بين تراث السماع ودراسة التاريخ الكنسي؛لأن نقل موضوع ديني معين إلى حلبة الصراع السياسي يكشف عن:

أ – عجز عن تقديم الحقيقة أو الأدلة، وإخفاء ذلك بتأليب الشعور الوطني المعادي للاستعمار والغرب؛ لكي يتحول إلى معاداة للباحثين.

ب – عجز عن الحوار، وذلك يكمن خلف إطلاق صرخات الخوف، ووصف الآخر على أنه الشيطان العدو، بينما الشيطان الحقيقي كامن خلف بقاء الجهل.

وبالرغم من أن بعض الزعماء الدينيون شيطنوا بعض رؤساء الدول أو الحكومات، إلاَّ أن عجلة التاريخ التي دائماً ما تسير إلى الأمام، تجاوزت هذه الاتهامات وضاعت التهمة بعد رحيل أصحابها. إلاَّ أن السؤال الجدير بالبحث هو عن حجم الخسارة المعنوية الناجم عن هذا الاتهام؟ هذا السؤال سوف يجيب عليه التاريخ والأحداث نفسها.

تحمل شيطنة الآخر قوة السلاح للضرب وللتهديد حتى بفقدان الحياة الأبدية نفسها، وعندما يصور الاتهام الآخر كشيطان، فإنه يخلق أكبر قدر من الخوف والعداوة، ولكي ينقل الاتهام هذه المشاعر العنيفة إلى العلاقات الاجتماعية نفسها إلى الحدّ الذي يصل فيه الاستبداد إلى أقصي درجة يمكن أن يصل إليها وهو إلغاء صلاة الجناز.

لقد سادت في السنوات الأخيرة مقولة لها عدة دلالات وتحتاج إلى دراسة اجتماعية خاصة تقول: "نحن نحارب الفكر ولا نحارب الشخص"، أو: "نحن نقاوم التعليم ولا نقاوم المعلم"، أو: "نحن نضرب الفكر ولا نضرب المفكر". هذه المقولة فاسدة تماماً، وفسادها يظهر في عدة مجالات لا تحتاج إلى دليل، ولكن ما هو واضح:

أ – الاتهامات المدعاة ضد هؤلاء الأشخاص، هي اتهامات شخصية، ولا تحتوي على رد أو تفنيد لأي فكرة أو فكر، بل هي اتهامات عامة كاذبة مثل اتهام الأب متى المسكين بحذف جزء من الإنجيل، أو اتهامه بنقل تعليم البروتستانت. فإذا كانت المحاولة هي ضرب فكر أو الرد على فكرة، فلماذا الهجوم على الشخص وحشد الشتائم "محارب لاهوت المسيح" و "محارب العدل الإلهي"... ألخ.

ب – والاحتجاج بأنهم لم يذكروا اسم المؤلف أو الكاتب أو المفكر، هو احتجاج كاذب وحجة فاشلة؛ لأن إخفاء اسم الكاتب يحرم القارئ من المراجعة إلاَّ إذا كان لدى القارئ الحس والذكاء لكي يدرك من هو الكاتب المقصود.

جـ – كما أن صياغة الاتهام تحمل دليل كذب المقولة؛ لأن الاتهام لا يبحث في مجمل أو محصلة أو كل فكر المؤلف كما ورد في كل مؤلفاته، بل هو ينقل عبارات مبتورة نقلت بطريقة متعمدة للتشويه وإثارة الشك لدى القراء وهو ما يجعل الاتهام اتهام شخصي تماماً.

٢– الثلاثة الذين غابوا عنا

إن ما هو حاضر عندنا هو حقاً مؤلم ويحتاج إلى الصوم والصلاة؛ لأنه ثقيل وصعب، ولكن يجب أن نقف أمام ما هو غائب عنا لأنه خاص بالإيمان نفسه وهو أيضاً ثقيل جداً وصعب، يكاد يكشف موقف الأنبا شنودة الثالث من الإيمان بأساسيات المسيحية، وليس الأرثوذكسية فقط.

أولاً: تجسد ابن الله يسوع المسيح

أسهل الأمور علينا أن يتحول كل ما هو حيٌّ وله وجوده الخاص المستقل إلى فكرة مجردة في داخل عقولنا، نسيطر عليها ونحولها إلى ما نشاء، بل ونتعامل معها حسب الأهواء، وحسب الاحتياجات والتطلعات الشخصية. تأمل عندما يصبح رب المجد يسوع المسيح فكرة كامنة في العقل تظهر من آن إلى آخر حسب الاحتياج، وحسب الضرورة، هذا يجعل رب المجد والمخلص عبداً وصنماً لاحتياجات الإنسان.

تأمل كيف يصبح المسيح أداة نلعب بها، أو سيفاً نجرده لقتل الآخر؛ وهو الذي مات من أجل الكل! عندما يصبح المسيح له المجد مصلوباً عن المؤمنين به فقط، فإننا نجرده من محبته للعالم كله، ونجعل الصليب مركز دائرة الأتباع فقط، بينما هو أي الصليب شعار ضد كل أنواع التحزب والخصام. ولا يجب أن ننسى أن الذين حولوا الصليب إلى شعار للحرب والعدوان، أشهروا إفلاسهم وسقطوا في بالوعة تجمع زبالة التاريخ، وهُزموا عسكرياً أمام الذين لم يكن شعارهم الصليب.

نحن أمام أحد أمرين: إذا تأملت المسيح بلا جسد، بلا ناسوت، بلا إنسانية، فمعنى ذلك أن تضعه خارج الحياة الإنسانية جملةً وتفصيلاً. أمَّا إذا تأملت ابن الله المتجسد إلى الأبد، تجده يحيا معنا، مع السجين الذي لم يحدد لنا الرب التهمة، أو الجريمة التي سجن لأجلها، مع الجائع والعريان، ومع حثالة المجتمع ومع كل الذين نُكبوا في هذا الزمان.

والسؤال المطروح هنا هو: على أي أساس سوف نتعامل مع الناس، هل على أساس المسيح الفكرة، أم المسيح المتجسد؟ والجواب لك أيها القارئ.

يفرض علينا الإيمان الصحيح بالتجسد أن لا نخلق ثنائية بين المسيح والكنيسة. لقد قاوم الأب متى المسكين ثنائيات *Dualisms* العصر الوسيط برقة ووداعة وصبر ودقة متناهية، تبدأ أولاً: من كلمات الرسول بولس نفسه "نحن من لحمه وعظامه" (أفسس ٥: ٣٠). ولو أحصى أي قارئ عدد المرات التي وردت فيها هذه الفقرة بالذات في كتابات الأب متى المسكين، لوجد أنها محور أساسي في شرح الأسفار وفي إعلان ابن الله المتجسد. فحقيقة التجسد الأبدي تضرب بعنف كل محاولات إبعاد المسيح عن حياتنا الإنسانية، ولو استطاع القارئ أن يقوم بدراسة ثلاثة مجلدات فقط – تفسير إنجيل يوحنا مجلدين – تفسير رسالة رومية لوجد أنه أمام فيضان من المحبة الإلهية نابعة من الله نفسه، ومن قلب الأب متى المسكين. فقد شغل المسيح كل حياته، وفكره، وماضيه، وحاضره، ومستقبله، ولذلك كان إبراز "الأصول الأرثوذكسية الآبائية" هو الهدف الأول والأخير لعرض وتقييم متواضع لأكبر عمل علمي، وتاريخي، ولاهوتي، وكتابي في القرن العشرين.

كم صفحة تريد أن تقرأ أيها القارئ عن المسيح يسوع في مجلدات الأب متى المسكين؟ عندما يقدم التطور التاريخي لممارسة الإفخارستيا، تراه يبرز دور الآباء في تسليم رؤيتنا للرب يسوع، ولذلك السبب وحده، جاءت الفصول الخاصة بالتاريخ لكي تقدم لنا "يسوع المسيح" كما عاش في قلوب الآباء، وكما حرك حياتهم كرب، وكطعام وكحياة تنسكب من فوق من عند الآب.

لكن الشتامون والحاقدون لا إيمان لهم بتجسد الرب، لأن التعامل مع مؤلفات الأب متى المسكين يحتاج إلى إيمان بتجسد الرب يسوع، وهو شيء عجيب حقاً: نعم لأن الإيمان بتجسد الرب يسوع هو إيمان بأن المسيح رب كل العصور، رب أنطونيوس الكبير، ورب برية الإسقيط، ورب كل مسيحي، والقوة الحية التي تحرك حياتنا. هل هذا

صعب؟ نعم صعب على من يجحد تجسد الرب ويطلق الشائعات وحملات الشك على من يكتب عن يسوع المسيح.

يفرض علينا إيماننا بتجسد الرب يسوع الأبدي أن ندرك أن كل كياننا الروحي والمادي، العقلي والجسداني، والكون كله قد التصق بالمتجسد بصورة أعظم، وأشمل جاء بها العهد الأبدي – عهد المسيح – وهذا يجعلنا نحترم من يختلف معنا حول الممارسات. حتى الذين يختلفون معنا في الإيمان، هم ميراث الرب، لأن الدينونة التي أعطيت للابن تجعله يملك حتى الأعداء "قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً قدميك" (مزمور ١١٠: ١)، ولذلك لا يحتاج المسيح إلى طقوس تمنع عنه أذى الأعداء أو تحميه من عدو يقف ضده، فهو الصخرة التي كل من سقط عليها أصيب بكسور، أمَّا مَن تسقط عليه الصخرة، فهي تسحقه (راجع مت ٢١ : ٤٤). ورغم أن البنائين قد رفضوا حجر الزاوية، إلاَّ أنه ومع ذلك أخذ حجر الزاوية مكانه رغم الرفض. ترى هل سيصاب جسد الرب إذا وضع يد متناول؟ والجواب هو في ضمير القارئ الذي يؤمن بأن المتجسد هو رب الحياة ومخلص الكل وناقض أوجاع الموت (أع٢: ٢٤)؛ لأن الإيمان بإلوهية المخلص يجعلنا نطلب حمايته هو، لا أن نحميه نحن. وما أعظم الفرق بين أن نرى الطقوس تدفعنا إلى الخشية والإكرام والوقار، وبين أن نرى الطقوس وقد صارت سور حماية للرب نفسه مع أن "القدسات" لا تحتاج إلى حمايتنا لأن الرب نفسه تجسد في قلب الحياة الإنسانية مع الكل لأنه رب الكل.

ثانياً: الكنيسة جسد المسيح

عندما صدر كتاب "الكنيسة الخالدة"، صدرت بعده عدة دراسات أخرى اشتملت على موضوع الزواج السري بين الرب والكنيسة، كانت الدعوة المضمرة خلف هذه الدراسات هي العودة إلى أحد بنود قانون الإيمان: "نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية". لماذا نؤمن بالكنيسة مع إيماننا بالله الآب والابن والروح القدس، وقيامة الجسد، والمعمودية الواحدة ؟

والجواب هو أن الكنيسة هي "هيكل الله" الذي يحمل كل هذا، فهي "فردوس الله"، وهي "عروس المسيح"، و"جسده"، و"هيكل الروح القدس".

لقد كان الأب متى المسكين يصر على حقيقة التجسد، وامتداد التجسد في الزمان والتاريخ والدم واللحم والعظام. فقد كانت حقيقة الإنسان هي مصدره الأول لشرح التعليم الرسولي ذي الجوهر الواضح والمعروف: "الكلمة صار جسداً وسكن فينا" (يوحنا ١: ١٤). وكان هذا الإصرار يعني بالنسبة له هو شخصياً – كراهب ترك كل شيء لكي يتبع الرب يسوع ويسير في ذات درب أنطونيوس الكبير، ومقاريوس، وكل آباء الرهبنة – إن حياته وإيمانه ليسا معلقين بأوهام أو أفكار مصدرها العقل والقلب، وإنما مصدر هذه الحياة والإيمان هو رب الحياة والمخلص، الكائن معنا في كل آن، والذي يملأ الكون كله والسماء والأرض. ومن هنا جاء تعبير صوفي لم يكتب باللغة العربية من قبل؛ لأن حصاد الكتابات الأرثوذكسية القبطية دوَّن باللغتين اليونانية والقبطية، هذا التعبير هو: "جسد المسيح الذي يملأ السموات والأرض". وكما ذكرنا من قبل أن الكنيسة هي الموضوع الحاضر الغائب، نعود ونؤكد أنها الحاضرة في كل أجيال التاريخ، وفي كل زمان، ومكان، وهذا ما تذكرنا به الليتورجية "هذه الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها". لذلك يقول الأب متى في تفسير رسالة أفسس:

«الكنيسة هي جسد المسيح وهي الإنسان الجديد المخلوق على صورة الله في البر وقداسة الحق... إذا فهنا خلقة جديدة روحانية مطابقة في موضوعها للخلقة الأولى التي خلقها الله للإنسان على صورته كشبهه» (كولوسي ٣: ٩، ١٠). «الكنيسة بسرها الإلهي في المعمودية تخلق بقوة الله. بواسطة المسيح. تُلْبِس الإنسان القائم من المعمودية المسيح نفسه. فكل إنسان معمد في الكنيسة يكون بالإيمان وبالسر قد خلق جديداً على صورة الله خالقه في البر وقداسة الحق. الكنيسة يوم خلقت، خلقت لتبلغ قامة ملء المسيح. الكنيسة التي هي نحن، خُلقت جديداً لما قام المسيح من الأموات بجسده الذي

أخذه منا. أنظر يا عزيزي القارئ فالمسيح قام من الأموات ليجلس عن يمين الله في السماويات ليكون رأساً فوق كل شيء للكنيسة» (شرح أفسس ص ٢٨ – ٢٩).

ويرتفع لحن مجد المسيح إلى تلك الرؤية الصوفية البالغة أقوى ما يمكن أن تكتبه يد بشرية قاطبه:

"أنظر! المسيح لم يتوقف عند القيامة، بل ظل يرتفع ويكسب الأوضاع والمواقف ويسود على الخلائق حراً في الأرض والسماء بلا استثناء، يضعها تحت قدميه ليصير في النهاية فوق كل شيء، لمن؟ للكنيسة" (شرح أفسس ص ٢٩).

وإذا أردنا أن نقدم دراسة كاملة عن تلك الرؤية الآبائية الأرثوذكسية، نشير إلى أن ما كتب في الكنيسة الخالدة وشرح رسالة أفسس يُعد أول "لبنة" في بناء كبير أساسة تجسد الرب وكماله قيامة الرب. وهكذا، عندما يبرز الأب متى المسكين حقيقة الكنيسة من بيت لحم إلى القيامة عبر التعليم والمعجزات والصليب والقبر إلى القيامة والصعود، يبدأ القارئ الذي غاب عن وعيه حقيقة الكنيسة وظن أن الكنيسة انقسمت إلى عدة كنائس، يعود من جديد ويكتشف أن ما غاب عن الوعي هو التجسد، والجسد الواحد الذي مر بمراحل التجديد، حسب تدبير الرب لكي يكمل بناء الخلقة الجديدة، وهكذا يصبح شرح الأب متى المسكين ظاهراً لمن يريد أن يعرف، وبعبارات قاطعة أنه توجد كنيسة واحدة هي "نحن" (تفسير رسالة أفسس ص ٢٩).

ولكن هذه الـ "نحن" ليست قاصرة علينا، بل كما يقول: "المسيح هو الذي أوصل الكنيسة إلى كمال الكمال يوم قام بالجسد من الأموات ليرتفع بجسده إلى أعلى السموات، لتصير هي جسده المقدس المقام في ملء المجد والكل مخضع لها تحت قدميه لأنه هو رأسها فوق كل خليقة" (المرجع السابق ص ٢٩).

إن حقيقة الكنيسة وكيانها الجديد وحياتها وكل ما فيها من المسيح، ولا يوجد ينبوع آخر. ولكن الأب متى المسكين يدرك عدم كمال الكنيسة كما هو ظاهر في تاريخ الكنيسة القديم والحديث، ولذلك يقول لكل قارئ «مهما تعثرت الكنيسة عبر الزمان

والتاريخ وتعوَّقت عن أن تأخذ صورتها الكاملة المنطبعة على كمال المسيح، فهي حتماً بالغة إليه زاحفة نحوها (صورة المسيح وكماله) لأن الكمال المسيحي هو طبيعتها، وملء المسيح هو حقها الإلهي الذي خلقت له، والذي اكتسبه المسيح لها بآلامه وعذاباته المرة وصليبه وموته ودفنه والمجد الذي ناله من يد الله بقوة عظيمة واقتدار يفوق العقل». «وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات، فوق لك رياسة وسلطان، وكل اسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً، وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة» (أفسس ١: ١٩ – ٢٢). (شرح رسالة أفسس ص ٤٠).

الرأس والجسد

لقد أدرك الأب متى المسكين بالحس الروحي الأرثوذكسي أن موضوع الكنيسة هو أحد أساسات التعليم الروحي، ولذلك عندما يشرح المنهج اللاهوتي للرسالة إلى أفسس تراه يقدم هذه الرؤية الجديدة جداً على القارئ المعاصر والقديمة جداً لأنها أساس كل ما وصلنا. يقول الأب متى المسكين:

«وفي الحقيقة هذه نظرة جديدة في اللاهوت الخلاصي (الذي يَدْرُس موضوع الخلاص)، لأننا تعودنا أن ننسب كل ما تم من التجسد والآلام والصلب والموت والقيامة والصعود والجلوس عن يمين الله ننسبه للمسيح ونقف عند هذا» (شرح رسالة أفسس ص ٢٥).

أليست هذه حقيقة ظاهرة في كل ما نشر عندنا باللغة العربية؟ أليست هذه هي أحد المشاكل الأساسية في الخطاب الديني المعاصر؟ ومن هنا يدرك الناسك القبطي الذي ترك كل شيء ليتبع المسيح، أن ما تم لأجلنا يجب أن يصل إلينا، لا أن يقف عند مستوى عقل أو عقول المؤمنين؛ لأن المسيح لم يفعل أي شيء عن احتياج خاص به، وإنما كما يعبِّر قانون الإيمان النيقاوي "هذا الذي لأجلنا نزل من السماء ..ألخ"، ولذلك،

وحتى قبل أن يقدم شرح أفسس، تراه متعلقاً بالكنيسة الخالدة: "إن المسيح هو الرب والمخلص، الذي صنع الله به هذا الخلاص العظيم مصالحاً به العالم لنفسه".

ولكن في الرسالة إلى أفسس يمتد هذا الخلاص كله، "وبكل القوة العظمى التي صنعها الله في المسيح، إذ أقامه من الأموات بجسده وأصعده إلى السموات بجسده، ليظهر أن هذه القوة العظمى هي من أجلنا، وأن كل العظمة والمجد الذي صار به المسيح فوق كل قوى العالم، المنظورة وغير المنظورة، السمائية والأرضية كامتياز فائق، أنه أيضاً من أجل الكنيسة التي هي جسده" (المرجع السابق ص ٢٥).

وهكذا يتابع الشرح مؤكداً «أن هدف الخلاص النهائي قد انتقل من المسيح إلى الكنيسة التي استقر فيها المسيح بكل قوة الخلاص وسلطانه فوق كل ما هو في السماء وعلى الأرض، ليكون رأساً لها يدبرها بكل قوى الخلاص وسلطانه» (المرجع السابق ص ٢٦).

وهنا تظهر المشكلة المعاصرة بشكل مباشر، والتي لا يشير إليها الأب متى المسكين، ولكنه يدرك من المعايشة أن الحاضر الغائب عندنا هو "الرأس والجسد"، ولذلك يقول: «ولكن لا يُنظر هنا إلى المسيح منفصلاً عن الكنيسة لأنه إن كان قد صار رأسها فهي صارت جسده، بمعنى أن المسيح صار للكنيسة الرأس والجسد أو أن الكنيسة هي: كل عمله وفكره وصارت كل أعضاءه».

* "لأننا نحن عمله" (أف ٢: ١).
* "أما نحن فلنا فكر المسيح" (١كور ٢: ١٦).
* "لأننا أعضاء جسمه من لحمه وعظامه" (أفسس ٥: ٣٠).

لذلك نرجو القارئ أن يراجع الأصل الذي اعتمدنا عليه، وهو كتابات الأب متى المسكين التي يتعذر علينا أن نلخصها؛ لأن التلخيص اختصار، والاختصار إخلال شديد بالمنهج وأسلوب الشرح والأهداف التي قد تستغرق أكثر من كتاب كامل.

ثالثاً: الحياة الأبدية

لعل القارئ القبطي الذي يتابع ما ينشر من كتب قبطية، قد لاحظ أن موضوع الحياة الأبدية، لا يحتل مكانة ظاهرة، بل هو موضوع وإن لم يكن غائباً تماماً، ولكنه مستتر، يكاد لا يحظى إلاَّ بإشارات غامضة، ويبرز في العظات التي تقال في الجنازات.

ودعامة الحياة الأبدية هي: الرب يسوع المسيح نفسه فهو حياتنا، وتلك هي الدعوة الرسولية التي تغطي أغلب كتابات الأب متى المسكين، وتنطلق من تصريحات الرب نفسه، لاسيما عندما يشرح الأب متى الأسفار.

وقاعدة الحياة الجديدة، أي المسيح نفسه، هي خلق الإنسان من العدم من لا شيء (راجع تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الفصول الأربعة الأولى). والخلق من العدم يعني بالضرورة أن الإنسان كما نقول في علم اللاهوت ليس "واجب الوجود ***Subsisting***". لأن الله وحده هو "واجب الوجود" أو بالدقة اللاهوتية "الكائن بذاته ***Self Subsisting***"، رغم أن كلمة "واجب الوجود" لا تليق بالله. هذا يذكرنا بكلمات أبينا الروحي القديس أثناسيوس، وشرح أبينا الروحي الأب متى المسكين، وهي أن الإنسان خُلق من العدم ولذلك فهو بالطبيعة، إي حسب خلقه من العدم فإنه غير قادر على البقاء بقدراته.

وتحول الإنسان من العدم إلى البقاء، ومن البقاء إلى الحياة الأبدية أو الوجود الأبدي، هو ما يجعل الشركة في طبيعة الله، شركة حياة وكمال للوجود الإنساني، وليست موضوعاً يمكن أن يصبح مصدر جدل وفكاهة وسخرية لا تليق بكرامة ابن الله الذي أعطانا شركة في بنوته، وأعطانا أن نحيا فيه إلى الأبد.

وهكذا إذا وضعنا معا الثلاثة الغائبين:

تجسد ابن الله – الكنيسة – الحياة الأبدية.

وجدنا أن هذا الغياب قد تسبب في "عتامة" شديدة في الرؤية الصحيحة للتعليم الرسولي، وإذا حصرنا أهم أسباب هذه "العتامة"، لوجدناها في غياب أهم جوانب

التعليم الرسولي، وهو استعلان الابن ربنا يسوع المسيح بقوة وعمل وسكنى الروح القدس، والعبارة الأخيرة وردت على الأقل مئة مرة في مجلدين هما شرح إنجيل يوحنا، وشرح الرسالة إلى العبرانيين للأب متى المسكين. واستعلان الرب يسوع المسيح بالروح القدس هو الذي يشرح لنا أن الكيان الإنساني غير قادر على استيعاب سر المسيح لا عقلياً، ولا كيانياً، أو وجودياً، لأنه يحتاج إلى "النعمة"، والنعمة هي المسيح نفسه، المعطى لنا بالروح القدس، المسيح نفسه وليس شيئاً آخر غيره هو شخصياً، لأن أي شيء آخر غير المسيح حياتنا يُعد تزييفاً لبشارة الإنجيل. والذي يسمع عظات الأب متى المسكين لآباء مجمع دير الأنبا مقار بجانب ما نُشر؛ يحس بعمق ألم وحزن الأب متى المسكين وهو يتكلم برعشة حزن حقيقي عن إنكار عمل وسكنى الروح القدس. القوة الحقيقية التي تعطى لنا، ليس فقط معرفة الرب، بل تذوقه ومشاركته آلامه وقيامته، أو بعبارة أخرى: إمَّا أن نأخذ الروح القدس لكي نحيا في المسيح، وبالمسيح كمسيحيين، أو نرتد ونقع في ذات تجربة الارتداد التي وقع فيها المؤمنون في كنيسة غلاطية، الذين كانت لهم بداية حسنة بالروح القدس، ثم ارتدوا إلى أعمال الناموس، فتركوا المسيح. أليست هذه هي سقطة التعليم المعاصر الذي يحارب الأب متى المسكين؟

* «الإيمان بالمسيح هبة ونعمة نلناها مجاناً »(شرح العبرانيين ص ٣٢٨).

* «يلزم جداً أن ننبه ذهن القارئ عندما يقول ق. بولس لهم "الذي دعاكم بنعمة المسيح"، فهي لا تعني إعطاء بركة أو دعوة من حالة إلى حالة أفضل أو أمجد، ولكن "دعوة الله بنعمة المسيح" تعني مباشرة وبقوة إلى فعل خلاص يتم أو قد يتم بموت المسيح الفدائي لكي يسرى هذا الفعل الفدائي في الفاجر» (شرح رسالة غلاطية ص ٨٩).

* «إن كان الغلاطيون قد حازوا على دعوة الله، التي لابد وأن تكون بالروح القدس لقبول نعمة المسيح التي هي عمل الفداء والقيامة بمعنى كلي للخلاص، فكيف تحولوا عن دعوتهم إلى الناموس والختان؟ أليس هذا لا يتناسب قط مع قوة نعمة المسيح وسلطان

الروح القدس المنوط به حفظ المؤمنين حتى يظلوا أمناء لدعوتهم ولنعمة المسيح التي فيهم» (شرح غلاطية ص ٩٠).

نتائج غياب الوعي بالكنيسة كجسد المسيح:

عندما غاب عن الوعي نفسه أن المسيح هو رأس الكنيسة، وأن الكنيسة جسده، نتج عن ذلك أن:

١- امتدت يد الطغيان والبطش تضرب - باسم الدفاع عن الأرثوذكسية التي لا يعرفها بالمرة هؤلاء المعتدون الذين فقدوا الأبوة - بالكذب والظلم "أعضاء جسد المسيح" (١كو ١٢ :١٢). وهكذا تجلي هذا الغياب في إعادة نشر الأكاذيب، بل والإصرار عليها واعتبارها عين الأرثوذكسية.

٢- تقديم نظام عقلي يخلو من شخص المسيح، بل وحل – بعضهم - محل المسيح في رئاسة الكنيسة نفسها، فأصبحت الكنيسة – عندهم – مجرد جماعة هم قادتها، لا جسد المسيح الخاضع لسلطان المسيح.

٣- فقدان قداسة التصرف؛ لأن الذي لا يدرك أن الكنيسة هي جسد المسيح فعلاً وحقاً، يسمح لنفسه أن يعبث كما يشاء، والأمثلة على ذلك تفوق الحصر مما أوردناه وما لم نورده.

الفصل الثالث

لاهوت الأسرار (μυστηριον)

كلمة سر في العهد الجديد

الكلمة اليونانية شائعة في الأدب اليوناني القديم الذي سبق تدوين العهد الجديد[1].

ومن الترجمة السبعينية *LXX* دخلت الكلمة "سر" إلى أسفار العهد الجديد. ولعل أول من استخدم هذه الكلمة هو ربنا يسوع المسيح عندما قال للتلاميذ: "لقد أعطى لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله" (مرقس ٤: ١١ – متى ١٣: ١١ – لوقا ٨: ١٠).

وقد استخدم الرسول بولس الكلمة ٢١ مرة على الأقل، وهذه هي بعض معاني الكلمة:

السر هو أمر لا يدركه العقل؛ لأن قساوة قلب إسرائيل وعدم قبول الإنجيل هو الذي فتح باب البشارة للأمم "لست أريد أن تجهلوا هذا السر. أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم" (رو ١١: ٢٥)[2].

---

(١) راجع:
W. Bauer, A Greek English Lexicon, and ed. P 530

(٢) راجع عظة ١٣ للقديس يوحنا ذهبي الفم على رومية ١١: ٢٥.

* ويقول الأب متى: «السر في العهد الجديد هو عمل من أعمال الله الفائقة، التي كانت مخفية عنده، ثم أعلنها وهي التي لا تخضع للعقل» (شرح رسالة رومية ص ٥٠١).

* ويقول الرسول عن القيامة العامة في اليوم الأخير: "هوذا سر أقوله لكم. لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير" (١كور ١٥: ٥١). لماذا لا نموت معاً مرة واحدة؟ هذا سر، ولماذا يظل البعض أحياء إلى يوم القيامة؟ هذا سر.

* والمسيح له المجد هو نفسه سر، ولذلك يطلب الرسول المزيد من المعرفة لكي نصل إلى "سر الله الآب والمسيح" الذي لا يدركه العقل لأنه "مذخَّرٌ فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" (كو ٢: ٢).

وللقديس يوحنا ذهبي الفم كلمات رائعة تعبر عن عدم قدرة العقل على استيعاب محبة الله للأمم، إذ يقول إن الأمم كانوا مثل كلب جائع ضال، وفجأة تحول إلى إنسان له كرامة ملوكية، ويجلس في بلاط الملك. هذا سر[١].

ولذلك، فالربط الظاهر بين استخدام كلمة سر في كولوسي ١: ٢٧، وكولوسي ٢: ٣ ضروري لفهم استخدام الرسول لكلمة "سر" الذي كان "مكتوماً في الأزمنة الأزلية"[٢] (رو ١٦: ٢٥).

* واستخدام الكلمة في صورة الجمع في (١كور ٤: ١) يؤكد لنا تعدد إعلانات أسرار الله التي تفوق الإدراك. ولذلك يقول العلامة أوريجينوس إن أي إنسان يقرأ الكتاب المقدس يمكن أن يحسب خادماً، أمَّا الوكيل لأسرار الله، فهو الذي نزل إلى عمق أسرار اللاهوت[٣].

---

(١) راجع العظة ٥ على رسالة كولوسي ص ٢٨٠ في الترجمة الإنجليزية.

(٢) كلمة "أزل" آرامية – سريانية وهي تساوي الكلمة العربية "أبد" ولا يوجد فرق لاهوتي بين الاثنين.

(٣) شرح رسالة كورنثوس الأولى النص اليوناني نشر في مجلة الدراسات اللاهوتية – جامعة أكسفورد مجلد ٩: ص ٣٥٤.

* وموهبة التكلم بالألسنة هي إعلانات أسرار الروح القدس: "من يتكلم بلسانٍ لا يكلم الناس بل الله، لأن ليس أحدٌ يسمع، ولكنه بالروح يتكلم بأسرار" (١كور ١٤: ٢).

وهكذا يشرح ذهبي الفم هذا النص:

"عندما يصل (بولس) إلى هذا الموضوع (مواهب الروح القدس)، فهو يقارن بين المواهب، ويعتبر أصغر هذه المواهب هو التكلم بالألسنة معلناً أنها ليست ضرورية وفائدتها محدودة. لأن (الكورنثيين) قد انتفخوا بسبب موهبة التكلم بالألسنة، واعتبروها أعظم المواهب. وعند بناء برج (بابل) كانت الأرض لساناً واحداً، ولكن الألسنة افترقت، حتى أننا نجد شخصاً واحداً قادر على أن يتكلم بأكثر من لسان، بالفارسية واللاتينية... الخ. ودعيت هذه الموهبة "الألسنة"؛ لأن من ينالها يتكلم بأكثر من لسان في نفس الوقت. وهنا نرى كيف يصحح (الرسول) ويعيد تقييم هذه الموهبة عندما يقول: "مَن يتكلم بلسان لا يكلم الناس بل الله". وهو هنا يقلل من هذه الموهبة؛ لأن فائدتها محدودة، ولكن عندما قال: "ولكن بالروح يتكلم بأسرار"، يرفع من شأن هذه الموهبة حتى لا يدعي أحد بأنها بلا فائدة أو بلا قيمة أو أنها تعطى سدى"[1].

* وسر مشيئة الله (أفسس ١: ٩) هو إعلان الثالوث في تجسد الابن الذي أعلن عن نفسه لبولس "أنه بإعلان عرَّفني بالسر" (أفسس ٣: ٣)، وهو سر إنجيل المسيح (أفسس ٣: ٤) حسب عبارات الرسول نفسه: "الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل" (أفسس ٣: ٥)، وهو أيضاً نفس الإعلان في (١تيمو ٣: ١٦) سر التقوى الذي ظهر في الجسد.

---

(١) عظة ٣٥ على ١كور ١٤: ١ – تُرجم النص عن اليونانية نظراً لضعف الترجمة الإنجليزية وعدم وضوحها.

الإفخارستيا سر التقوى المعلن بالروح القدس

حسب كلمات القداس الباسيلي: "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى؛ لأنه فيما هو راسم أن يسلم نفسه عن حياة العالم، أخذ خبزاً"، هذه العبارات هي عصارة الحياة الروحية واللاهوت الشرقي؛ لأن الابن له المجد يعلن عن نفسه في القداسات حسب صلواتنا:

– "أنت يا رب علمتنا هذا السر العظيم الذي للخلاص"، ولذلك يطلب الكاهن "قوة الروح القدس".

– "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر اظهر وجهك على هذا الخبز".

وفي صلاة استدعاء الروح القدس "ليحل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين. ويظهرها قدساً لقديسيك".

فالروح القدس – كما سنرى بعد ذلك – يعلن الأسرار، ويعطي قوة للذين يخدمون، ويحل على الشعب وعلى القرابين، ويعلن هذا السر العظيم الذي للخلاص.

هذه الصلوات على قدر كبير من الأهمية اللاهوتية والمستيكية، لأنها تؤكد لنا أن الإفخارستيا هي عطية الابن الوحيد، وهي عطية لا يمكن الاقتراب منها أو إدراكها بدون الروح القدس. والإدراك هنا ليس القدرة العقلية بكل ما فيها، بل الإدراك الذي يأتي من استعلان السر، وإنارة القلب وهو ما تحرص عليه بداية الصلاة الربانية التي أودعت في خاتمة كل صلوات القسمة: "لكي بقلب طاهر ونفس مستنيرة... الخ"؛ لأننا هنا كأبناء الآب السماوي لا نقف في الهيكل بقدراتنا أو تقوانا أو الذكاء والحكمة، بل بموجب دعوة الرب: "خذوا كلوا... الخ"، وإعلان إلهي للسر الفائق الذي لا يدرك بالحكمة البشرية.

موجز لمعاني كلمة "سرّ" عند الآباء

لا يسمح المجال بعرض وتحليل ما يزيد على ١٨٠٠ نص عند الآباء تبدأ بالشهيد أغناطيوس وترتفع إلى القمة عن القديس كيرلس السكندري، لتصل إلى كمالها عند القديس يوحنا الدمشقي، ولذلك من أجل الحق وسلامة القصد، وضعنا كلمة "موجز" حتى يدرك القارئ أن مئات النصوص تحتاج إلى مجلد كامل.

وحتى لا يظن القارئ أننا نبالغ، نرجو أن يقرأ ما نشر باللغة الإنجليزية من عظات ومقالات القديس غريغوريوس النزينزي، لكي يقرأ بنفسه كيف تظهر كلمة سر على الأقل مرتين في المقالات اللاهوتية، وعلى سبيل المثال المقالة الأولى *Oration* عن عيد الفصح واعتكافه (١: ٢ — ٤ — ٥)، حيث يقول:

*« مسحني السر. لقد اعتكفت لفترة بسبب السر حتى أمتحن نفسي» (١:٢).

* «بالأمس صلبت معه، أمَّا اليوم فإنني أُمجَّد معه. بالأمس مُت معه، أمَّا اليوم فقد قمت معه. لنقدم أنفسنا (حياتنا) لله فهي أثمن ما نملك وأفضل ما يمكن أن نقدمه. لنقدم الصورة الإلهية التي خُلِقَت حسب الصورة (الابن ربنا يسوع). لنعي كرامتنا، ولنكرم المثال، لكي نعرف قوة السر ولماذا مات المسيح؟» (١: ٤).

* «لنصير مثل المسيح لأن المسيح صار مثلنا، لنصير لله لأجله لأنه تأنس لأجلنا. لقد أخذ الحقير لكي يعطي العظيم. لقد صعد لكي يجمع الكل نحن الذين سقطنا في أسفل الخطية. لنقدم له الكل ولنقرب (مثل قربان) الكل للذي قدم نفسه فدية ومصالحة لأجلنا، ولا يوجد أفضل من حياتنا نقدمها له لكي نفهم السر، ولكي نتحول إلى كل ما صار إليه (أو تحول إليه) لأجلنا» (١: ٥).

هكذا يدرك غريغوريوس الناطق بالإلهيات أن السر، هو تحول في كيان الإنسان لكي نصبح أو نصير مثل المسيح لأنه صار مثلنا. وهو ما يجعلنا نقدم كل شيء لأجله لكي نفهم السر، أي سر تقديم المسيح فدية لأجل حياتنا.

هكذا يضع القديس غريغوريوس المسئولية علينا، ولكن هذه المسئولية هي لقاء وتحول في المسيح[1]، وهو ما يشرحه في المقالة الثانية فقرة ٢٤ فيقول:

"لقد ولد الرب في بيت لحم، فصارت بيت لحم البديل لجنة عدن، وصار ميلاده من العذراء لأجل كل امرأة... هذا هو "السر الجديد" الذي تم حسب التدبير وحسب محبة الله للبشر".

* وعندما يفحص القديس غريغوريوس قوة وعمل الابن الوحيد في المقال الثاني – الذي يدافع فيه عن نفسه، وعن سبب هروبه وعودته بعد رسامته – يقول: "من هو الإنسان الذي استطاع أن يختبر ويتأمل ويذوق ألقاب وقوة المسيح، أي تلك التي له قبل تجسده، وهي ما يفوق الإدراك، والأخرى الأقل التي تنسب إليه بعد تجسده والتي أخذها لأجلنا مثل الله، الابن، الصورة، الكلمة، الحكمة، الحق... من هو الإنسان الذي يستطيع أن ينطق بحكمة الله التي أخفيت في سر".

عزيزي القارئ،

لقد عرضنا هذه النصوص في إيجاز شديد؛ ليس لكي نحدد معاني كلمة سر، بل لكي نقدم للقارئ المجال الشامل العريض لكلمة "سرّ". فهي كلمة شاملة تضم الكثير من المعاني التي تفوق الحصر، بسبب ضيق المجال، وبسبب تأخر ترجمة ونشر نصوص آباء الكنيسة، والاكتفاء بحصيلة السنوات الماضية، وهي نقطة أو قطرة صغيرة من نهر كبير.

الرموز لعمل المسيح هي سر التدبير

* يقول الشهيد يوستينوس في الحوار مع تريفو عن حمل الفصح:

«سر الحمل الذي طلب الله أن يذبح في الفصح هو رمز للمسيح» (فقرة: ٤٠).

---

(1) قارن بين تحولنا نحن في المسيح حسب "السر"، وتحول المسيح فينا حسب الفولكلور السائد إلى سوائل وإفرازات الجسد إلخ... وتأمل الفرق الشاسع بين الإيمان الأرثوذكسي والخرافات السائدة.

«وحيث أن سر ميلاده يدعونا إلى أن نفحصه، فقد سبق وأخبر به أشعياء النبي ...» (فقره: ٤٣).

* وقبل الشهيد يوستينوس يقول إغناطيوس الأنطاكي عن سر المسيح:

«إن الذين عاشوا بموجب العادات القديمة وجاءوا إلى امتلاك الرجاء الجديد، هؤلاء لا يحفظون السبت، بل يحفظون يوم الرب، اليوم الذي أشرقت فيه حياتنا بواسطته (المسيح) وبواسطة موته. لأننا بهذا السر قد نلنا الإيمان" (مغنيسيا: ٩).

وبعد هذين الشهيدين بما يقرب من ٢٥٠ سنة يعظ القديس كيرلس الأورشليمي عن صلب الرب يسوع المسيح ويقول عن الرب يسوع:

«أنشدت قديماً في سفر النشيد عن البستان وقلت للعروس: "لقد دخلت بستاني يا أختي العروس" (نش ٥: ١). لأن الرب صُلِبَ في البستان (يوحنا ١٩: ٤١). وماذا أخذت من البستان "قطفت المر" (نش ٥: ١)؛ لأنه شَرِبَ الخمر والخل الممزوج بالمر، وبعدما شرب قال: "قد أُكمل"[١] (يوحنا ١٩: ٣٠). لأن السر قد كمل ولأن ما قيل في الكتاب قد تم فالخطايا غفرت لأن المسيح قد جاء رئيس كهنة الخيرات الآتية (عب ٩: ١١)"[٢].

رؤية الشرق الأرثوذكسي للأسرار

لا يحتاج القارئ إلى أن يعرف من كتابات الآباء، أن المعمودية، والميرون، والإفخارستيا هي أسرار، فهذا موضوع معروف لا يحتاج في الوقت الحاضر إلى دراسة. ولكن، تاريخياً لم يحدد الشرق عدد الأسرار، ولم يقدم لنا الآباء تحديداً عقائدياً

(١) هكذا فسر القديس كيرلس الأورشليمي كلمة الرب على الصليب "قد أكمل"، فقد قدم الرب نفسه لأجلنا. وهو غير التفسير الشائع لدينا والذي يقول إن هذه العبارة تعني أن ثمن خطايانا قد دفع، وأن العدل قد استوفى حقه، وهو مجرد رأى شخصي للأنبا شنودة الثالث لا وجود له في كتب كل أباء القرن الخامس. وعلى المكابر أن يقدم لنا نصاً واحداً يؤيد شرح الأنبا شنودة، الذي هو ذات شرح الشيع البروتستانتية. وبالرغم من هذا، فإنه يوجه لنا الاتهام بأننا نهاجم الفداء والكفارة، لأننا قلنا أن المسيح لم يدفع ثمن خطايانا، بل محاها، وذلك بحسب صلاة الساعة السادسة في الأجبية والتي تقول: "مزِّق كتاب خطايانا أيها المسيح إلهنا".

(٢) تعليم الموعوظين عظة ١٣: فقرة ٣٢.

Dogmatic لكلمة سر. وآخر آباء الشرق، والذي نأخذ بما ذكره في موضوع صعود جسد العذراء، هو القديس يوحنا الدمشقي، لم يحدد لنا عدد الأسرار ولم يقدم تعريفاً للأسرار. وما يكتب عندنا في مصر عن "نعمة غير منظورة تعطى بواسطة علامة منظورة"، هو التحديد الذي جاء في لاهوت الغرب وبالذات في كتابات كل من: *Peter Lombard* و *Hugh of St. Victor*

وبكل أسف وحزن، نحن لم ندرس العصر الوسيط واللاهوت المدرسي في الكنيسة الغربية ولا حتى في الكنيسة القبطية، رغم ما نشر من دراسات جيدة جداً في الغرب بواسطة الكاثوليك وغيرهم، وما نقله أستاذنا الفاضل الكريم الأستاذ حبيب جرجس عن كتاب الأنوار في الأسرار لمطران اللاذقية جراسيموس مسرة معروف لمن يريد أن يدرس التاريخ. وهكذا من الغرب أخذنا تعريف السر، بل وعدد الأسرار، وهو تطور لاهوت العصر الوسيط الغربي.

فإذا أثبتنا أن ما لدينا عن موضوع الأسرار منقول عن لاهوت العصر الوسيط، هل تعُد دراستنا هذه بمثابة محاولة انقضاض على التعليم الكنسي وهدم الأسرار؟ والجواب بكل يقين لا. لأننا نعلم تماماً أن الثالوث يعطي نعمة خاصة في كل الخدمات الكنسية، وأن أبرزها وأكثرها استعمالاً هي ما يعرف باسم أسرار الكنيسة السبعة: التبني في المعمودية – مسحة الروح القدس في الميرون – جسد الرب ودمه في الإفخارستيا – نعمة الكهنوت في الكهنوت – الشفاء في مسحة المرضى – الاستنارة والإفراز وغفران الخطايا في التوبة والاعتراف – الاتحاد الروحي على مثال اتحاد المسيح بالكنيسة في سر الزيجة. هذه تحدث دائماً وبشكل متواتر، ولذلك كان نقل لاهوت الأسرار في المؤلفات الأرثوذكسية عن لاهوت العصر المدرسي سهلاً، ولكن حصر استخدام كلمة سر في الأسرار السبعة ينفي "سر اللقان"، وينفي ما جاء في كتابات ديونيسيوس الأريوباغي عن سر الرهبنة وسر الجناز وغيرها. بل لقد حصر *Hugh of St Victor* عدد الأسرار في

٣٠ سراً وضم إلى الأسرار الخاصة بخلاص الإنسان، "سر رشم الصليب". وكان القديس أوغسطينوس يعتبر قانون الإيمان من ضمن الأسرار الكنسية أي *Sacrament*.

عودة إلى منهج البحث

كانت أحد أفضال العصر المدرسي، هو تحديد النظام العقيدي *System*، بل وتقديم المفردات والتعريف الدقيق لغوياً بكل كلمة. لكن لا تزال أحد جوانب الضعف، هي في أن النظام *System* يخلق موضوعات منفصلة بلا وحدة تجمعها. مما يطرح علينا الكثير من الأسئلة التي تتحول بمرور الزمان إلى مشاكل. العبرة ليست في عدد الأسرار، بل في اكتشاف النعمة التي تُعطى، واستعلان قوة ومجد الثالوث القدوس في كل شيء. ومنهج البحث يؤكد بروز سبعة أسرار تمارس بشكل متواتر وباقي الأسرار – كما سنرى – تمارس من آن لآخر. فقد كانت الممارسة المتواترة هي أحد أسباب بروز رقم "٧" على سطح الحياة الكنسية.

الفصل الرابع

سرّي الرهبنة وصلوات الجناز
حسب كتاب "رئاسة الكهنوت" لديونيسيوس الأريوباغي

حسب الدراسات الأرثوذكسية المعاصرة، وحسبما ورد في كتابات الآباء الشرقيين أنفسهم، أي حسب القراءة التاريخية لما لدينا من مصادر. بدأ الاهتمام بكتابات ديونيسيوس الأريوباغي في نهاية القرن الخامس. وحسب التاريخ القديم، هو تلميذ الرسول بولس، تقابل معه في أريوس باغوس (أع ١٧: ٣٤). ورسائل ديونيسوس تبدأ برسالتين لتيموثاوس وتيطس تلميذا الرسول بولس، ويؤكد فيها ديونيسوس معرفته بالرسول، بل يشير إلى سجن الرسول يوحنا في جزيرة بطمس، ويؤكد أنه كان في مصر عندما غطَّى الظلام الأرض. ويشير يوسابيوس المؤرخ الكنسي، إلى أنه أول أسقف على مدينة أثينا[١]، وشهادة يوسابيوس القيصري ذات دلالة لأنه يقتبس نصاً لأسقف كورنثوس وهو يدعى أيضاً ديونيسوس، وهو من شخصيات القرن الثاني.

وقد دار نقاش وجدل حاد في العصر الحديث حول صحة كتابات ديونيسيوس، ومدى علاقة هذه الكتابات بتلميذ الرسول بولس. وفي إيجاز شديد لأن هذه النقطة بالذات لا تخصنا، يقول النقاد ابتداء من هرنك *Harnack*، إن ما لدينا تحت اسم ديونيسيوس له صلة وثيقة بآخر فلاسفة الأكاديمية اليونانية لتدريس الفلسفة – وهو بروكلس *Proclus* وهو من أساتذة الأكاديمية قبل أن تغلق بأمر الإمبراطور جوستنان في ٥٢٩م، ولذلك يضع هؤلاء النقاد الكتابات كلها كأحد مؤلفات القرن الخامس

(١) تاريخ الكنيسة الكتاب الثالث – الفصل ٤ فقرة ٦.

بسبب كثافة استعمال المصطلحات الفلسفية اليونانية للفيلسوف اليوناني أفلاطون *Plato*. ولكن وجود هذه المصطلحات في كتابات قديمة مثل المربي، والمتنوعات للقديس إكليمنضس السكندري لا يؤخر وجود إكليمنضس السكندري إلى نهاية القرن الخامس، بل وحتى استخدام مصطلحات من كتابات أفلوطين *Plotinus* ليست هي أيضاً دليلاً قاطعاً على صحة وضع كتابات ديونيسيوس في أول القرن السادس[1].

تحت هذا الاسم ديونيسيوس نجد المؤلفات التالية:

١- اللاهوت المستيكي / *The Mystical*

٢- رئاسة الكهنوت / *The Ecclesiastical Hierarchy*

٣- الرئاسة السماوية / *The Celestial Hierarchy*

٤- الأسماء الإلهية / *The Divine Names*

٥. الرسائل

٦. مجموعة كتب فقدت: رسالة عن رتب الملائكة، النفس، بر الله والدينونة.

سر الرهبنة *Mysterion*

واستخدام كلمة سر يملأ كتاب "رئاسة الكهنوت"، ولذلك تجيء الفقرة الثانية من الكتاب السابع تحت عنوان "سرّ الرهبنة"، أي أن العنوان من وضع المؤلف نفسه. ويجيء سر الرهبنة أو سر التكريس للرهبنة وهو العنوان الكامل، بعد الفقرة الخاصة بالرسامات لسر الكهنوت، ورتب الذين انضموا إلى الكنيسة *Ranks of the Initiated*.

ويشرح ديونيسيوس طقس التكريس مؤكداً أن الرهبان، هم من شعب الله، وأول رتبة في شعب الله، وبعد هؤلاء رتبة الذين يحتاجون إلى التطهير بالاعتراف والتوبة ورتبة الموعوظين. ويصف الراهب بأنه – حسب الطقس – قد «أفرز نفسه للحياة الكاملة التي

---

(١) راجع:
Adnrew Louth, Deny the Areopagite 1999, pp. 1- 16

هي واجبه الأول والذي يملي عليه أن يتجاوز الحياة العادية»[1]. ولذلك يُودْع الراهب كل ما هو عادي في الحياة الإنسانية.

لماذا اعتبر ديونيسيوس "الرهبنة" سراً من أسرار الكنيسة؟

إجابة هذا السؤال سهلة على من يقرأ الرئاسة أو الرتب السماوية، ورئاسة الكهنوت. وصعبة على من لم يقرأ هذين الكتابين. ومع ذلك يجب أن نضع أمام القارئ الرؤية الكنسية القديمة، التي نحتاج إلى أن نعود إليها، لكي نستوعب ما عجز عنه لاهوت العصر الوسيط الذي يغزو الآن الكنيسة القبطية:

أولاً: يتوسط الحياة الكنسية، الثالوث القدوس وحوله رتب الملائكة، والرتب هنا ليست درجات متفاوتة تفصل بينها مسافات أو كرامة، لأن العروش والسيادات والكراسي هي نِعَمْ (من جمع نعمة) مختلفة لا تفاوت في درجتها، بل اختلافها وتوزيعها ضروري من أجل خلق الوحدة التي لا تتحقق إلاَّ بتنوع العطايا وتمايز الخليقة.

وهنا يجب أن نشير إلى أن كلمة "رئاسة" بالعربية لا تُتَرجِم بدقة الكلمة اليونانية *Hierarch* لأنها لا تعني الرئيس أو كبير الكهنة. ولكن الكلمة الواردة بكثرة هي *Hierarchia*، وهي مكونة من كلمتين *Hier* وتعني مقدس، *archia* تعني المصدر أو الينبوع المقدس الأول أو "المتقدم". وقد شعر هو بأن الكلمة يمكن أن يساء فهمها لاسيما وأنه يستخدم كلمة أخرى للثالوث *Thearchia* أي مصدر أو ينبوع الإلوهة. وحتى في الكلام عن الله يقول عن صلاح الله نفسه إن الله هو المتقدم أو الأول في الصلاح *Agatharchia* ولذلك في مقدمة رئاسة الكهنوت يقول: "الرئاسة *Hierarchy* كما أفهمها هي رتبة مقدسة تقوم على المعرفة والممارسة؛ لأنها تتمثل بالله

---

(1) رئاسة الكهنوت ٧: ٣ راجع النص اليوناني مجلد ٥ : عامود ٥٣٦.

على قدر الإمكان، وهي استجابة للاستنارة التي تعطى من الله وترتفع بالتشبه بالله حسب العطية"[1].

وهكذا نزع ديونيسيوس فكرة القوة والسلطة؛ لأن الرتبة التي تُوهب من الله يجب أن تتشبه بالعاطي، وتعمل حسب المعرفة، وحسب النعمة، لا حسب القوة والسلطان[2]. لأن القوة في المعرفة والسلطان هي في الاتجاه نحو الله الذي أعطانا هو نفسه هذه السلطة. وطالما أن غاية العطية هي التشبُّه بالله، بات من الحتمي أن يصبح هذا هو جوهر الرتبة لا الاستعلاء والبطش، ولذلك يقول بعد ذلك:

"إن الله نفسه، هو المثال والقائد الذي يقودنا إلى المعرفة المقدسة وإلى الممارسة. وأننا عندما نتأمل دون تردد تواضعه الفائق. فإن رئاستنا *Hierarchy* تأخذ ختم الله، عندما تجعل كل الذين فيها صوراً *Image* لله، كاملة وبلا عيب، مثل مرآة نقية تستقبل النور الأزلي لجوهر اللاهوت الفائق. والذين يقبلون النور بدون حسد، يصبحون ينابيع الاستنارة التي تعطي الآخرين حسب الترتيب المعطى من الإلوهة"[3].

وعندما يجيء لشرح رئاسة الكهنوت يقول:

«بالضرورة إذن حسبما ذكرنا سابقاً، أن المتقدمين في الرئاسة بعد أن يمتلئوا من العطية المقدسة من اللاهوت الفائق، ويُرسلون بواسطة صلاح اللاهوت الفائق. أن يقدموا ويشاركوا الآخرين في نفس العطية بكل تقوى، متعطشين إلى أن يرتفع الكل إلى التألُّه عندما يشاركونهم في الرؤيا (المعرفة الآتية من الله) المدوَّنة (الأسفار) وغير المدوَّنة (التعليم) »[4].

---

(1) راجع رئاسة الكهنوت الفصل الأول – الفقرة الثالثة. راجع الترجمة الإنجليزية *Colin Parker* المجلد الثاني ص ٧٠ – طبعة ١٨٩٩ وهي أدق الترجمات الإنجليزية. وراجع *A. Louth, op. ct p. 38*.

(2) راجع صلاة التحليل نفسها "أنعمت على الذين يعملون في الكهنوت .." فهي نعمة الله وليست سلطان حلّ وربط كما شاع في العصر الوسيط. وحتى بعد القيامة لم يستخدم الرب يسوع كلمة سلطان بل قال "اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه غُفرت ..." راجع شرح القديس كيرلس عمود الدين لنص يوحنا ٢٠: ٢١ – ٢٢.

(3) المرجع السابق.

(4) المرجع السابق فقرة ٥ ص ٧٣.

ولذلك، فإن تقسيم الرتب كما ورد في نفس الكتاب "رئاسة الكهنوت"، يجعل ديونيسيوس يؤكد أن الرئاسة لا تنقسم إلى درجات لأنها: الذين يتطهرون والذين يطهرون، البعض استناروا بينما البعض يُنارون، البعض في طريق الكمال وآخرون يكملون الآخرين بالتشبُّه بالله. لأن هذا هو الهارموني الحاصل بسبب التشبُّه بالله وبقاء كل واحد في رتبته[1]. وبالتالي، تكون الرئاسة هي درجة الاقتراب من الله وليس سلطة تُعطى قائمة بذاتها.

ثانياً: ما هو الفرق بين الشاروبيم والسيرافيم؟

الشاروبيم "المملوؤن عيوناً"، والسيرافيم "الملتهبون بالنار". ولكن تنوع الرتبتين لا يعطي مكانة لرتبة فوق الأخرى؛ لأن كلا الرتبتين يحملان العرش الإلهي[2]. وهكذا في شعب الله، الذين استناروا بسبب الاتحاد بالثالوث وصاروا بسبب النسك أقرب (من الذين يتطهرون) من النور الإلهي، هؤلاء ذاقوا الأسرار الإلهية وصارت حياتهم سراً *Mystery* بالمعنى العريض الذي يراه ديونيسيوس. هنا يلزمنا أن نشير إلى رتبة الحياة الروحية الواحدة عند الكل: التطهير – الاستنارة — الاتحاد[3]. وهذه ليست درجات مثل درجات السلم واحدة فوق الأخرى، بل تمثل كل درجة عملاً من أعمال الله الثالوث، وكل درجة لها هدف واحد هو التشبه بالله.

إذن، فما هو السر؟ ولماذا اعتبر ديونيسيوس السر يشمل الجنازات؟

حسب التسليم الرسولي نفسه، يكمل الموت الجسداني "سر المعمودية"؛ لأننا نخلع الجسد الذي شارك في كل أعمال النفس، والذي كان الوجود المنظور للنفس. هنا بالذات لا يمكن اتهام أو نقد ديونيسيوس باللجوء إلى الفلسفة اليونانية. لاسيما أفلاطون الذي كان يكره ويحتقر بشدة الوجود الطبيعي للإنسان في الجسد.

وحسب ترتيب كتاب رئاسة الكهنوت الأسرار هي خمسة:

---

(1) رئاسة الكهنوت ٣: ٢.

(2) الرئاسة السماوية – الفصل السابع كله.

(3) راجع الرسالة ٨ مجلد ٥: ١٠٨٥ – ١٠٨٨.

المعمودية – الميرون – الرسامات – الرهبنة – الجنازات.

وحسب الفصل السابع يذكر ديونيسيوس في الفقرة الأولى: «الذين "يرقدون" في الإيمان "منتظرين مواعيد اللاهوت غير الكاذبة"، وهؤلاء يقابلون الموت "بفرح وبرجاء ثابت"؛ لأن "كفاحهم يتجه إلى الحياة الكاملة السعيدة والقيامة"». وهكذا يجب أن نفهم أن التقديس قد تم أثناء الحياة في المعمودية والميرون، وهو حسب كلمات ديونيسيوس «النفوس المقدسة التي قد تتغير أثناء هذه الحياة وتعود إلى ما هو أسوأ. إلاَّ أنها بالتجديد تنال الحياة الثابتة (في المسيح)، وهي تعود إلى الحياة غير المتغيرة التي تشبه حياة الله».

وعن الجسد يقول: «والأجساد النقية التي حملت النير مع النفوس المقدسة، وحاربت الحرب الإلهية للثبات في الحياة غير المتغيرة الإلهية، فإنها تنال القيامة مع النفوس، عندما تتحد بالنفوس المقدسة التي كانت متحدة بها في الحياة الحاضرة (على الأرض)، عندما كانوا أعضاء المسيح» (١كور ١٢: ١٢) وفي القيامة سينالون (الأجساد) الحياة الخالدة والرجاء السعيد (عب ٤: ١١) »[١].

والجدير بالذكر أنه في الفقرة الثانية يُفَنِّد رأي أفلاطون عن النفس والقيامة لاسيما تناسخ الأرواح كما ورد عند أفلاطون[٢]. وهو بدوره ما يدفع شبهة التأليف في القرن الخامس.

سرّ *Mysterion* الذين يرقدون في التقوى

يقول ديونيسيوس:

«يجمع الأسقف الخورس، وإذا كان الذي رقد من رتب الكهنوت يضعونه أمام المذبح الإلهي... وبعد صلاة الشكر وتلاوة المزامير يصرف الأسقف الموعوظين ويذكر

(١) رئاسة الكهنوت، الفصل السابع، الفقرة الأولى، راجع ترجمة J. Parker ص ١٤٥ – ١٤٦.
(٢) Plato, Phaed 1: 54, J. Parker p 146 Note.

أسماء الذين رقدوا من شعب الله بصوت عال وبشكل خاص الذي يخصه الجناز. وينتهي الجناز بتقدمة الإفخارستيا».

ولعل القارئ يذكر الوصف الدقيق لجناز أب الشركة الأنبا باخوم الذي انتهى بالقداس، وهو أقدم وصف وصلنا من القرن الرابع.

فالصلاة على الراقدين تشترك فيها كل الكنيسة، وفي الإفخارستيا، وبعد التقديس واستدعاء الروح القدس تظهر في الطلبات الصلاة من أجل الراقدين؛ لأن التعليم المسيحي القديم جداً، هو أن ذبيحة سر الشكر تقدم عن الراقدين أيضاً لأنهم أعضاء في جسد المسيح الواحد "الكنيسة" الذي لا يمكن أن ينفصل عضو منه وعنه بالموت؛ لأن الموت داسه الرب يسوع تحت قدميه، والوحدة الروحية الكائنة بين المؤمنين لا يمكن هدمها بالموت، ولذلك تظهر أسماء الراقدين في القداسات؛ لأنهم معنا في إتحاد أبدي. هذه الحقيقة هي السبب الأول والأخير في الرؤية العريضة والواسعة التي تظهر في اللاهوت الشرقي؛ لأن الأسرار تشمل حياة المؤمنين ككل، بينما حصر الرقم والتصنيف والفصل وحصر عمل الثالوث في الرقم سبعة، يترك ركنين أساسيين هما صلاة الجنازات والرهبنة وكلاهما يعبران عن الموت والقيامة اللذان يعطيان في "سر المعمودية وسر الميرون"، فليس فقط الجناز، بل كذلك أيضاً الرهبنة التي هي شهادة عن حياة الدهر الآتي والقيامة مع الرب بالموت معه... وهكذا تسبب الفصل بين الأسرار والجنازات والرهبنة بفراغ في الرؤية، وهكذا صارت المعرفة – حسب تصنيف العصر الوسيط – قاصرة على ما حدده لاهوت العصر الوسيط، وهو أقل بكثير مما هو في الممارسات الليتورجية الشرقية.

الأرقام لا تحدد الأسرار الكنسية

إذن "السر" أكبر من أن يندرج تحت أرقام مهما كان عددها، ولا يعني ذلك على الإطلاق أن هناك انقضاض أو ثورة أو تمرد ضد الرقم (٧). كل ما في الأمر هو محاولة بسط دائرة الأسرار لكي تشمل ما هو غائب عن الوعي التاريخي واستقر في

أرثوذكسية شعبية غير تاريخية، وهو هدف كل دراسة جيدة توسع دائرة الرؤية ولا تحذف، بل تضيف.

على أن ما هو جدير بالبحث، ليس هو الأرقام، بل مفاعيل الأسرار نفسها، وما تقدمه من شركة في الحياة الإلهية. أما خلق اتهامات غير تاريخية تصف من لديه رؤية أوسع من الرقم (٧) بأنه بروتستانتي وعدو الأرثوذكسية، فهو سلوك لا يليق.

الفصل الخامس

سرّ غسل الأرجل في العلية
حسب تسليم الكنيسة الأرثوذكسية
وكما شرحه الأب متى المسكين

تؤكد لنا خدمة وترتيب "غسل الأرجل" في الطقس القبطي الأرثوذكسي، أننا نمارس سراً كنسياً ذو دلالة روحية هامة. ولم يكن غريباً أبداً أن يؤكد ذلك الأب متى المسكين أهمية هذه الخدمة الكنسية التي تواجهنا في شرحه لإنجيل القديس يوحنا، وهو الإنجيل الذي حرص على ذكر هذه الخدمة كواقع وحدث له دلالة كبرى تم في ليلة آلام الرب يسوع.

أولاً: ماذا نتعلم من طقس اللقان

بعد صلاة الساعة التاسعة من يوم خميس العهد تبدأ خدمة اللقان، والقراءات من الكتاب المقدس ذات دلالة واضحة. فهي تبدأ بغسل أرجل الرجال الثلاثة، وهم أحد ظهورات الله في العهد القديم، ثم عبور البحر الأحمر. والقراءة الأولى خاصة بغسل الأرجل. أمَّا القراءة الثانية فهي، رغم أنها خاصة برمز قوى عن المعمودية، وهو ما يتكرر في تسبحة العشية في الهوس الأول والثاني، ثم دخول أرض كنعان في القراءة الثالثة، إلاَّ أن كلمات أشعياء النبي (٤: ١ – ٤ ثم ٥٥: ١ – ٥٦ : ١) ذات دلالة هامة لأنها خاصة باستعلان الله وظهور مجده.

وقصد ترتيب القراءات أن يضع المزمور (٥١: ٧، ١٠) قبل الإنجيل لأن داود يطلب الاغتسال الروحي من الله. وبعد الإنجيل يظهر لنا أننا إزاء قداس أو ليتورجية كاملة. ظنَّ بعض علماء الليتورجيات أن الخدمة أُعيدت ورُتِّبت لكي تتناغم مع قداسات الإفخارستيا، ولكن هذا ما يظهر على السطح من الخارج. ولكن كلمات الخدمة مثل الأنافورا تبدأ بالخلق والتجسد وموت الرب على الصليب "من أجل خلاصنا" لكي يعطى – ولاحظ الكلمات – "**رسم المحبة**" و "**ترتيب التواضع**" و "**تذكار محبتك للبشر**". هذه العناصر الثلاثة تؤكد لنا، حقيقة عمل المسيح السري ولذلك يصبح الماء الذي باركه الرب كما بارك في ذلك الزمان: ماء شفاء – غفران خطايا – طهارة وخلاصاً وصحة للنفس والجسد والروح لكي نمارس محبة لبعضنا البعض. ثم تقول الصلاة:

"طهر إنساننا الداخلي بثمرة هذا السر" آمين.

ثانياً: شرح الأب متى المسكين:

في الجزء الثاني من شرح إنجيل يوحنا تتحول كلمات الإنجيل عندما يشرحها الأب متى المسكين إلى دقات ناقوس كبير وإلى لحن قوي هادر بعمل الله (راجع ص ٧٨٠) وبعدها ينطلق إلى آفاق لاهوت الإسكندرية – إرسالية التلاميذ الذين غُسِلَت أرجلهم ليبشروا بالإنجيل؛ لأن غسل الأرجل كان قاصراً على تلاميذه (ص ٧٨١)، ثم ينطلق بعدها من الأساس الروحي لغسل الأرجل الذي – حسب كلمات الأب متى المسكين – هو «سراً ملتحماً بسر الإفخارستيا» (ص ٧٨٢) والمقارنة بين غسل الأرجل وسر بذل الدم والجسد يقوم «على سر انحناء الأكبر للأصغر فهو سر الرب الذي أخذ شكل العبد» (في ٢: ٧)، وهو لذلك «أحد أسرار المسيح الجوهرية... جوهره شركة مع قامة بر المسيح في اتضاع الإلوهة، حيث يأخذ كل من الإفخارستيا وغسل الأرجل كلاهما صورة "السر" وقوته من منطلق لاهوت المسيح المتحد بناسوته، فكلا السرين إلهي وبشري

بآن واحد» (ص ٧٨٢). وهنا يقترب الأب متى المسكين من أحد جوانب الخلاص الهامة جداً في عمل الرب: التواضع غير العادي، تواضع الله نفسه الذي رتَّل له شعراء الكنيسة السريانية "مارافرام بالذات" بشكل يخيف البسطاء والسذج، فقد انحنى الرب الخالق أمام الخليقة وغسلها من عارها، وأي عار هذا هو عار الكبرياء، غَسَلَ الإنسان وهو في شكل عبد داخلياً بالتواضع، وخارجياً عندما خلع ثيابه وهو تصرف الخدم والعبيد[١]» (ص ٧٨٢).

ومرة أخرى نقول، إذا أُضيف "سر غسل الأرجل" حسب ترتيب الخدمة نفسها إلى أسرار الكنيسة، وأصبحت الأسرار هي: المعمودية، والميرون، والإفخارستيا، والتوبة والاعتراف، والزيجة، والكهنوت، والرهبنة، والجناز، وغسل الأرجل، فهل هذا يزعزع أساس الأرثوذكسية ويهدم الإيمان؟ وهل كان الأريوباغي بروتستنتياً، أو كان أقل أرثوذكسيةً؟

يكفي في الوقت الحاضر أن نقول إنه لا يصح أن يصبح الرقم (٧) الذي لم ينكره أحد، هو معيار الأرثوذكسية، بحيث إذا زاد الرقم أصبحت الأرثوذكسية في خطر.

---

(١) وكما قلنا سابقاً، نعيد ونكرر أن الأب متى المسكين يعتبر ناقداً أرثوذكسياً للفكر الغربي، وهذه أحد الأمثلة المختصرة: "إجراء خلع الثياب – لا يدركه علماء الكتاب الغربيون" (شرح إنجيل يوحنا ج ٢ ص ٧٨٣) التي تعبر عن وعي كنسي أرثوذكسي أصيل.

الفصل السابع

الأسرار الكنسية في تاريخ ولاهوت الكنائس البيزنطية الأرثوذكسية

حسب دراسة العلماء المعاصرين لنا من أساتذة التاريخ الكنسي مثل الأب مايندورف *John Meyendorff*، والأسقف كاليستوس وير *Kallistos Ware* وقد شغل الأول كرسي تاريخ الكنيسة في جامعة *Fordham* ومعهد القديس فلاديمير في أمريكا، والثاني كان أستاذ اللاهوت الأرثوذكسي وكتابات الآباء في جامعة أكسفورد – كلاهما من الكنيسة الأرثوذكسية، الأول قس، والثاني أسقف، وكلاهما يؤكد ما جاء في وثائق التاريخ الكنسي ويقدم التعليم اللاهوتي الثابت في مصادر التاريخ.

يكتب الأب مايندروف في كتابه "اللاهوت البيزنطي[١]" الفصل ١٥:

"يجهل اللاهوت البيزنطي التمييز بين "السرائر" *Sacraments* وما هو مقدس وسرائري *Sacramental*، ولم يقبل بالمرة حصر عدد السرائر. في زمن الآباء لم يكن لديهم تعريف تقني *Technical* خاص بالسرائر كما تمارس في الكنيسة. وكان تعبير السر *Mysterion* يستعمل بشكل عام واسع خاص "بسر الخلاص"[٢]. وفي إطار محدد، وهو الممارسات التي تعطي الخلاص. وفي هذا المعنى الخاص الثاني، فكلمة السر تستعمل مع كلمة أخرى وهي "الطقوس"، ومع كلمة ثالثة هي "التقديس"[٣] وعندما كتب

([١]) راجع:
Byzantine Theology, Historical Trends and Doctrinal Themes, Fordham University Press, pp 191FF

([٢]) راجع القديس يوحنا ذهبي الفم، عظة ٧: ١ على ١كورنثوس مجلد ٦١: ٥٥.

([٣]) راجع القديس يوحنا ذهبي الفم عظات الموعوظين SC 50، العظة الثانية: ١٧ ص ١٤٣.

ثيؤدور الاستدوي *Studite* في القرن التاسع عن الأسرار، قدم لائحةً بستة أسرار: سر الاستنارة (المعمودية) – اجتماع الكنيسة *Synaxis* – الميرون – الكهنوت – الرهبنة والجنازات[1].

والتعليم الخاص بالأسرار أو السرائر السبعة، يظهر لأول مرة بشكل ظاهر ولمناسبة خاصة في الاعتراف بالإيمان الذي طُلب من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل *Paleologus* بواسطة البابا اكليمنضس الرابع في عام ١٢٦٧. وصيغة الاعتراف بالإيمان أعدها – طبعا وكما هو متوقع – اللاهوتيون الكاثوليك[2].

وكما هو معروف، فإن الأصل الغربي الذي حصر عدد الأسرار لم يمنع من قبولها بشكل واسع عند المسيحيين الشرقيين بعد القرن الثالث عشر، حتى عند الذين قاوموا بعنف ورفضوا الاتحاد مع روما.

ويبدو أن قبول هذا التعليم لا يعود مباشرة إلى تأثير اللاهوت اللاتيني، بل إلى ما هو شائع بشكل خاص في العصر الوسيط، والاهتمام البيزنطي الشديد بعطايا الروح القدس السبعة (أش ١١: ٢ – ٤). ولكن عند المؤلفين البيزنطيين الذين قبلوا الأسرار أو السرائر السبعة نجد قوائم حصر الأسرار مختلفة. الراهب أيوب (القرن الثالث عشر) وله كتاب عن الأسرار يضع الرهبنة ضمن الأسرار السبعة كما فعل ثيؤدور الاستودي الذي ضم سر التوبة مع سر المسحة (مسحة المرضى) في سر واحد. وسمعان من تسالونيكي – القرن الخامس عشر – اعتبر الرهبنة سراً، ولكنه ضم الرهبنة إلى سر التوبة كسر واحد، واعتبر مسحة المرضى سراً منفصل. أما يوصاف مطران أفسس، وهو معاصر لسمعان التسالونيكي، فإنه يعلن: «أنا أؤمن أن الأسرار الكنسية ليست سبعة، بل هي أكثر من سبعة». ويقدم لائحة بعشرة أسرار ضم إليها تكريس الكنائس، الجنازات، والرهبنة.

---

(1) رسالة ٢: ١٦٥ مجلد ٩٩ : ١٥٢٤.

2 راجع:

G.M. Jugie, Theologia Dogmatica Christianorum Orientalium, Vol 3, Paris, 1930, p16.

وكما هو معروف، لم تقبل الكنيسة البيزنطية بشكل رسمي لائحة معينة عن عدد الأسرار، ولذلك يقبل بعض المؤلفين ما هو مألوف، أي السرائر السبعة – المعمودية، الميرون، الإفخارستيا، الكهنوت المقدس، الزواج، التوبة ومسحة المرضى – والبعض يقدم لائحة أكبر، وآخرون لازالوا يؤكدون المكانة الخاصة الكبرى للمعمودية والإفخارستيا، أي الأسرار الرئيسية للانضمام إلى الحياة الجديدة. وهكذا يعلن غريغوريوس بالاماس أنه « في هذين السرين يتجذَّر خلاصنا كله لأن تدبير الإله المتأنس جُمِعَ ***Recapitulated*** فيهما، ولذلك وعندما ألف نيقولاس كاباسيلاس ***Cabasilas*** كتابه "الحياة في المسيح" وضع شرحاً للمعمودية والميرون والافخارستيا[1]، باعتبارهم أسرار الانضمام إلى المسيح، وهم في ذات الوقت أسرار كمال شركتنا في الثالوث.

(1) راجع: نقولا كاباسيلاس، الحياة في المسيح، سلسلة آباء الكنيسة – منشورات النور – بيروت، ١٩٨٢.

الخلفية التاريخية
للتعليم الخاص بالأسرار السبعة

الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ١٢٥٨ – ١٢٨٢م

كان والده الوالي الأكبر لمقاطعة تسالونيكي، وولد في عام ١٢٢٥، وصار قائد حامية مكدونية في سن الـ ٢١. وفي عام ١٢٥٨م توِّج إمبراطوراً على مقاطعة نيقية لأن القسطنطينية كانت تحت حكم اللاتين. وحارب اللاتين والقسم اليوناني التابع في ١٢٥٩م. ثم تحالف مع ولاية البندقية لكي يستعيد القسطنطينية وتمكن من الاستيلاء عليها في ٢٥ يوليو ١٢٦١م. وهرب الإمبراطور اللاتيني *Valdouin* بعد أن حكم المدينة لمدة ٢٥ سنة، هدموا فيها الكنائس وحولوها إلى إسطبلات للخيول، وحرقوا الكثير من المخطوطات. وحاول اللاتين استعادة القسطنطينية بالقوة. ولكن ميخائيل حاول من جهته توحيد الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية تحت سلطان بابا روما لكي يتفادى الغزو والتهديد من الأتراك. وحارب الإمبراطور البيزنطي ١٢٨١م الحملة العسكرية التي قادها شارل الأول وهزمه ومنعه من احتلال مكدونية، وتمكن قائد حامية صقلية من حرق الأسطول في ميناء بالرمو وأنقذ هذا القسطنطينية.

هذه الخلفية التاريخية هامة جداً؛ لأنها تشرح لنا سبب قبول الإمبراطور البيزنطي وثيقة الاعتراف بالإيمان. من الضروري أن نُذكر القارئ أن الصراع العسكري لم يكن بين المسيحيين والمسلمين،. وأن غزوات الفرنجة لم يطلق عليها اسم "غزوات الصليبيين" إلاَّ في القرن العشرين وبسبب حركة ترجمة الأبحاث التاريخية الأوروبية، لكن كل مصادرنا العربية والإسلامية تصف هذه الغزوات باسم حروب الفرنجة.

وفي عام ١٢٠٤م غزا الجيش الأوروبي الإمبراطورية الشرقية واستولى على القسطنطينية[١] واستباح كل ما فيها، حتى الكنائس لم تسلم من التخريب. وكما ذكرنا من قبل ظلت عاصمة الإمبراطورية تحت حكم اللاتين ٢٥ عاماً حتى استردها الإمبراطور ميخائيل الثامن.

عندما عقد المجمع في مدينة ليون، وهو المجمع الثاني الذي يعقد في نفس المدينة – سبقه المجمع الأول ١٢٤٥م – والذي استطاع فيه البابا أنوسنت الرابع أن يصدر قراراً بقطع الإمبراطور فردريك الثاني من شركة الكنيسة في الوثيقة[٢] ***Bulla Depositionis Fridreici II Impretoris***.

كانت الظروف السياسية في أوروبا قد ساءت. فقد غزا التتار أوروبا الشرقية ودمروا الكثير في روسيا وبولندا والمجر، ولكن توقف الزحف لأسباب غير معروفة، واتجه التتار للشرق، في ظل هذه الظروف كان انعقاد المجمع الثاني في نفس المدينة ذو أهمية كبرى من الناحية السياسية، وكما ذكرنا من قبل كانت شخصية الإمبراطور ميخائيل الثامن هي أكبر الشخصيات التي اشتركت في المجمع، وكان الاعتراف بالإيمان الذي قدمه الإمبراطور البيزنطي بمثابة محاولة لإرضاء الكنيسة اللاتينية للحصول على الدعم العسكري المطلوب في وجه التهديد الآتي من الأتراك وغيرهم.

وهكذا ظهر لأول مرة التعليم الخاص بالأسرار أو السرائر السبعة —كما سبق أن قلنا – بمناسبة الاعتراف بالإيمان الذي طُلب من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل ***Paleologus*** بواسطة البابا اكليمنضس الرابع في عام ١٢٦٧م. وكان اللاهوتيون الكاثوليك هم اللذين أعدوا هذه الصيغة.

---

(١) تعرف باسم الحملة الرابعة.

(٢) Bulla تترجم دائماً إلى Bull وهي كلمة لاتينية تعني إعلان عام أو وثيقة علنية.

اعترافات بطاركة الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية بالإيمان وبالأسرار الكنسية

الوثائق التاريخية

* البطريرك فوتيوس *Photius* ٨٦٦م.
* مجمع القسطنطينية في ١٠٥٤م.
* غريغوريوس بالاماس ١٣٥١م.
* مرقس مطران أفسس ١٤٣٩م.
* وثائق الحوار بين البطريرك أرميا الثاني بطريرك القسطنطينية والرد على أسئلة اللوثرين ١٥٦٧م.
* الإيمان الأرثوذكسي للمطران بطرس *Mogila* مطران كييف للروس الأرثوذكس ١٦٣٨م.

وبهذا نكون قد اقتربنا من العصر الحديث من دراسات اليونان والروس والبلغار وعلماء اللاهوت الأرثوذكس في بلاد المهجر مثل مايندروف، والأسقف كاليستوس وير *Ware* وغيرهم.

فوتيوس بطريرك القسطنطينية

أهم ما ورد في رسالة البطريرك للأساقفة الشرقيين، هو رفض انبثاق الروح القدس من الآب والابن. وصوم يوم السبت عند اللاتين[١]. لم يذكر البطريرك فوتيوس شيئاً عن الأسرار.

مجمع القسطنطينية ١٠٥٤

اتسعت هوة الخلاف، ولم تعد خاصة فقط بانبثاق الروح القدس، بل ضمت القائمة الخبز المختمر – الفطير. وأمور أخرى خاصة بعادات وعرف وملابس الكهنة، ولم تذكر جلسات المجمع شيئاً عن الأسرار.

غريغوريوس بالاماس ١٣٥١م

كان الصراع حول القوة الفاعلة *Energy*، وعلاقتها بالجوهر *Substance* بين بالاماس و *Barlam*، و *Akindynos* حول حلول الله في الإنسان، وشركة الإنسان في الطبيعة الإلهية. هذا الموضوع طرح في إطار فلسفي خاص بالتمييز بين الجوهر *Substance* والقوة الإلهية *Energy* ولازال حتى ساعة كتابة هذه السطور – رغم الأبحاث الهائلة التي قدمت في كل جامعات العالم – اقتناع عام بين محبي بالاماس[٢] أمثال الأب ماينـدروف، وأعداء بالاماس، وهم عدد كبير من الكاثوليك والبروتستانت، بأن التمييز بين الجوهر *Substance* والقوة الإلهية *Energy* هو تمييزٌ فلسفيٌ بحت

---

(١) ادعاء طائفة الأدفنتست بأننا لا نقدس السبت هو ادعاء كاذب لأن السبت نحفظه بروح المسيح ولا يجوز فيه الصوم وكانت القداسات تقام في السبوت في بداية العصر المسيحي في مصر بشكل خاص (راجع كتاب الإفخارستيا للأب متى المسكين).

(٢) الحوار اللاهوتي عن مكانة بالاماس في التراث الأرثوذكسي والاعتراضات عليه سجلت في مجلد واحد Eastern Church Review المجلد التاسع، ١٩٦٠ ومقالة الأستاذ اليوناني George Mantzarides لها أهمية تاريخية ولاهوتية خاصة ص ١ وما بعدها.

ويعود أصلاً إلى التمييز بين الجوهر والأقنوم عند آباء آسيا الصغرى – باسيليوس – غريغوريوس النيسي – غريغوريوس اللاهوتي.

حاشية على موضوع الشركة في الطبيعة الإلهية

ولأن هذا الموضوع يمس بشكل غير مباشر ما يقال ضد التعليم بالشركة في الطبيعة الإلهية، نوجه النظر إلى أن القارئ الذي يعرف اللغة اليونانية ويقرأ كلمات (٢ بطرس ١: ٣) "شركاء الطبيعة الإلهية" يمكنه أن يرى بنفسه أن حرف الجر "في / in" غير موجود في الأصل اليوناني، بل يظهر في الترجمات الأخرى، بحسب طبيعة كل لغة واختلافها عن غيرها من اللغات، ولذلك يجب أن ننبه إلى أن حرف الجر خاص بطبيعة وكيفية استخدام اللغة، ولا يخص الإيمان بالشركة في طبيعة الله. ويلاحظ أن تعبير "شركاء الطبيعة الإلهية" أقوي بكثير من "شركة في الطبيعة الإلهية"؛ لأن تعبير "شركاء الطبيعة الإلهية" هو صيغة المضاف والمضاف إليه، وهي صيغة الامتلاك والحصول، وما تعبير "شركة في الطبيعة الإلهية" إلاَّ تعبير تفسيري للتعبير الوارد عند القديس بطرس الرسول. وفي أثناء الصراع مع الأريوسية والهرطقات الأخرى التي تفرعت، منها كان اجتهاد الهراطقة هو البحث عن حروف وكلمات وقواعد اللغة لتأكيد انفصال الأقانيم في الثالوث القدوس أولاً، ثم لتأكيد انفصال الإنسان عن الله ثانياً. فالخطوة الأولى تسبق الخطوة الثانية، ولذلك لا تتم الخطوة الثانية بدون الأولى.

ولعل القارئ اطلع على الدفاع الحار للقديس باسيليوس في مقدمة كتابه عن الروح القدس، وفي الفصول التي تلي المقدمة عن الذكصولوجية القديمة المجد للآب والابن في الروح القدس، وهي صيغة إيمانية جيدة جداً مثل المجد للآب في الابن بالروح القدس، وهي صيغة أخرى. لكن نية الهراطقة ليست قبول الإيمان، بل الاحتجاج بكل برهان ممكن ضد ما هو مقدس وخاص بالخلاص.

مرقس مطران أفسس ١٤٣٩م[١]

أهم ما سجله مطران أفسس هو أول اعتراضات أرثوذكسية على عقيدة الكاثوليك الخاصة بالمطهر. أمَّا في الكتابات العربية المعاصرة التي نشرت في مصر بالذات، فقد اكتفى الدفاع القبطي الأرثوذكسي ببرهان واحد، وهو أن المسيح دفع الثمن على الصليب، (دلوار شنودة المنفلوطي – الجوهر في بطلان المطهر – بدون تاريخ، القاهرة حوالي ١٩٥٥م)، وهو الكتاب الذي نقل عنه الأنبا شنودة دون تمييز. ولكن مطران أفسس يقدم ثلاثة اعتراضات جديرة بالدراسة، وكلها تدور حول عمل الابن وعمل الروح القدس كعمل واحد للثالوث، وهي قاعدة الإيمان الأرثوذكسية الثابتة في كتابات الآباء.

أولاً: أباد الرب يسوع الموت

والموت هو قاعدة أو أساس الخطية، واختلاط الخطية والموت واضح عند الرسول بولس "بالخطية الموت" (رو ٥: ١٢). وإبادة الموت بالصليب وبالقيامة تعني إبادة قوة الخطية وقدرتها على موت الموت[٢]. هذا يعني أن الخطايا بعد المعمودية وبسبب الإيمان والتوبة لا تقدر أن تضع الإنسان تحت الدينونة مرة ثانية. ورغم أن هذا الشرح ورد في كتاب مرقس المتوحد "ضد الذين يظنون أنهم بأعمالهم الصالحة يرثون ملكوت السموات"، فقد سجل الأب متى المسكين ذات الشرح، ولكن دون العودة إلى كتاب

---

(١) مراجع هامة خاصة بمرقس مطران أفسس:

١- الكنيسة الأرثوذكسية للأسقف كاليستوس وير – منشورات النور – الطبعة الإنجليزية ١٩٦٣ ص ٧٠ – ٧١ – ٨١ – ٨٨,

2- Archmandrite Amrrosy, Mark of Ephesus and False union of Florance, http://www.orthodoxnet.com

3- The lives of the Pillars of Orthodoxy vol 5, Colorado, 1990 pp 372 – 500

(٢) راجع صلاة القسمة للقديس كيرلس "الذي قتل الموت".

مرقس المتوحد، وإنما اعتمد على دراسته للعهد الجديد والحس الروحي الأرثوذكسي الذي يملأ شرح رسالتي رومية وغلاطية.

ثانياً: التقديس أو التطهير بالروح القدس

لا تقبل الثقافة السائدة أن يكون الله هو مصدر تطهير الإنسان من خطاياه. ومع ذلك، فالتعليم المسيحي هو أن الله هو الذي يغسل دنس الإنسان كله حسب كلمات المزمور "اغسلني كثيراً فأبيض أكثر من الثلج" (مزمور ٥١: ٢ حسب النص القبطي). ولعل الآباء العظام الذين رتبوا صلوات السواعي كانوا يراقبون من بعيد "الانحدار" الذي سوف يصيب رسالة المسيح والجهود الجبارة (الفاشلة) التي تُبذل لكي تحفر هوة بين المسيح والمؤمنين، ولذلك رتبوا وضع مزمور ٥١ في مقدمة كل صلاة من صلوات السواعي.

والخطية لا تقدر أن تبيد تقديس الروح القدس؛ لأن قوة الخطية لا تعادل قوة النعمة، بل لا تجوز مقارنتها بالخطية بالمرة. ووجود سر الاعتراف والتوبة، إنما يؤكد عودة الإنسان إلى ما كان عليه مهما كانت خطاياه.

ثالثاً: الشركة في الطبيعة الإلهية

قدمنا دراسة مستفيضة نشرت في القاهرة[1]، ولذلك سوف نكتفي هنا في إيجاز شديد بفقرة واحدة للقديس أثناسيوس وردت في كتاب الأب متى المسكين «أن الكلمة صار جسداً لكي يقدم جسده عن الجميع، ولكي إذا نحن اشتركنا في الروح القدس نصير شركاء الطبيعة الإلهية. هذه العطية كان يستحيل علينا نوالها إذا لم يكن لَبَسَ جسداً من جسدنا المخلوق، ولكن بنوالنا الروح القدس لا نفقد طبيعتنا الخاصة» (القديس أثناسيوس ص ٦٢٣).

(1) هذه الدراسة متوفرة مجاناً على موقع الدراسات القبطية www.coptology.com

والشركة في الطبيعة الإلهية لا تلغي طبيعة الإنسان كمخلوق، بل تحفظ الطبيعة المخلوقة إلى الأبد، وتعطي لها كل أمجاد الابن المتجسد.

الأنبا شنودة الثالث وتعليم حركة الإصلاح

كان لاهوت العصر الوسيط قد حفر أساس حركة الإصلاح البروتستانتية:

أولاً: عندما أكد على وجود هوة بين الإنسان والله. هذه الهوة تجاوزها نساك الغرب في العصر الوسيط[1]، ولكن كتابات هؤلاء النساك لم تدخل مدارس اللاهوت، وظل اللاهوت المدرسي أو لاهوت العصر الوسيط غير قادر على استيعاب تواضع الله ومحبته الخاصة للخطاة، ولذلك لا يظهر موضوع الشركة في الطبيعة الإلهية إلاَّ في عبارات قصيرة مبعثرة لا تشكل وحدة كاملة، ولا تضع الشركة كهدف يسعى إليه الله نفسه في يسوع المسيح ابنه وبفاعلية وقوة الروح القدس.

ثانياً: عندما حصر الفداء في دفع الفدية أو الثمن للآب، وألغى بذلك باقي الجوانب التي أشار إليها الأب متى المسكين في كتابه عن القديس بولس عندما عرض "النظريات الثلاث" أي الشرح العقلي لموت الرب يسوع (ص ٢٧١ – ٣٠٦). وناقش الفداء بعمق ودقة في فصل كامل (ص ٢٣٣ – ٢٥٨)، بل نشر جوانب الفداء في فصل آخر سبق دراسته عن القديس بولس. ونكتفي هنا بعرض ملخص لما ورد في هذا الفصل الخاص بالقديس أثناسيوس:

---

(1) من أهم الشخصيات اللامعة في تاريخ التصوف المسيحي اكهارت Eckhart (١٢٦٠ – ١٣٢٨) وهو راهب دومينكاني ورئيس دير Erturt في ألمانيا. دَرَس اللاهوت في باريس ودرس اللاهوت بعد ذلك فيها. لم يقبل رئيس أساقفة كلون Cologne العظات والتعليم المستيكي الذي عرف به اكهارت وقدم لمحكمة كنسية في ١٣٢٥ ولم تثبت عليه أي تهمة. فى ١٣ فبراير ١٣٢٩ أعلن اكهارت من على المنبر أنه مستعد لتغيير أي صيغة أو عبارة تثبت أنها خطأ ولكنه قدم لمحكمة أكبر في مقر رئاسة بابا روما في Avignon ومن حسن حظه أنه مات وهو في الطريق إلى المحكمة للدفاع عن نفسه. أعيدت نشر العظات وشرح الأسفار في ١٩٨٢ ونشر الدفاع الذي كتبه راجع:
E. Colledge and B. McGinn, Meisten Eckhart, 1982

+ عندما قدَّم الكلمة جسده كتقدمة خالية من أي دنس، رفع وأباد في الحال حكم الموت عن كل نظرائه بتقديم المعادل والبديل (مفهوم واقعي للفداء).

+ "لأن كلمة الله كونه أعلى من الجميع، صار من الطبيعي أن يكون موته كافياً لتسديد الدين عن الجميع" (مفهوم بديع عن الخلاص بتسديد الديون).

+ "وبذلك، فإن ابن الله غير القابل للفساد، لما اشترك مع الجميع بذات الطبيعة البشرية ألبس الجميع عدم الفساد عينه بوعد القيامة" (مفهوم بديع عن معنى الخلاص بالخروج عن دائرة الفساد).

+ "الفساد الحقيقي (الهلاك) القائم من الموت، لم يعد له أساس أو علة للوجود ضد الإنسان بسبب الكلمة الذي بجسده الواحد جاء وسكن بيننا" (مفهوم بديع للخلاص كغلبة الموت)[1].

ولعل سيادة الفكر القانوني الذي أشرنا إليه، والاكتفاء بتسديد الديون كشرح واحد لا يسمح بعرض الجوانب الأخرى المتعددة لموت الرب، سوف يقضي في النهاية على سر الإفخارستيا، ويخلع هذا السر من جذوره. وقد نبَّه الأب متى المسكين في أكثر من مرة وفى أكثر من مكان في مؤلفاته إلى ضرورة استعادة الجانب الأزلي حسب مستوى العلاقة بين الأقانيم في الثالوث، لاسيما وهو يشرح نص عب ٩: ١٣ الذي يؤكد في شرحه، وحسب كلماته، أن تقديم الرب يسوع لجسده ودمه على الصليب بالروح الأزلي، فهو:

أولاً: ذبحٌ لذبيحة بلا عيب. وهنا يقول الأب متى المسكين إن هذه الكلمة بالذات من (عب ٩: ١٣) هي «تكميل الفعل الإرادي الحر والوعي الكامل لفعل الذبح الذي يجريه في ذاته، أنه أيضاً على أعلى مستوى من القوة الإرادية المتحكمة في نفسه ليكون بلا عيب وقدوساً...».

---

(١) راجع صفحات ٤٢٣ – ٤٢٤ والحاشية الهامة عن التقدمة والذبيحة على ص ٤٢٤.

ثانياً: "فإن كان المسيح "بروح أزلي" قدم نفسه لله ليكون ذبيحة فداء، فهي ذبيحة روحية حتماً حتى وإن كانت بالجسد، فهي ممتدة امتداد الله فيه، وفداؤه هو فداء أبدي، لا حدود لفعله ولا نهاية لعمله"[1].

والعبارة الأخيرة تضع الأب متى المسكين خارج كل إطار العصر الوسيط وفهمه، أي فهم العصر الوسيط للفداء والكفارة؛ لأن عدم وجود حدود لفعل الموت الإرادي على المستوى الأبدي أو الأزلي هو الذي يفتح ينابيع موت الرب وقيامته في سر الإفخارستيا.

البطريرك أرميا الثاني بطريرك القسطنطينية

كان لوثر وملانكثون يؤكدان إيمانهما بما جاء في كتابات الآباء وانتماءهم إلى إيمان الكنيسة الجامعة. بعد رحيل قادة الإصلاح في ألمانيا، تولى أساتذة اللاهوت في جامعة توبنجن الدفاع عن حركة الإصلاح ووضع الأساتذة صيغة إيمان تعرف باسم إيمان *Augsburg* أو الصيغة الجامعة أرسلت إلى بطريرك القسطنطينية أرميا الثاني[2](١٥٧٢ – ١٥٩٧).

يهمنا هنا فقرة خاصة بالأسرار وردت أصلاً في الفقرة الخاصة بالكنيسة، فقد احتفظ اللاهوت الأرثوذكسي البيزنطي دائماً بمكانة الأسرار في الكنيسة كأساس للحياة المسيحية، وبالكنيسة في الثالوث الذي هو ينبوع كل الأسرار: "واحدة هي الكنيسة المقدسة... أسرار وطقوس الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية التي للمسيحيين هي سبعة وهي كما يلي: المعمودية، الميرون أي المسحة المقدسة، الشركة المقدسة (الإفخارستيا)، الرسامات، الزواج، التوبة، والزيت المقدس (مسحة المرضى)؛ لأن عطايا الروح القدس هي

---

(١) شرح الرسالة إلى العبرانيين ص ٥٤١ – ٥٤٣.

(٢) تعد دراسة الأب اليوناني الأرثوذكسي George Mastrantonis أهم ما صدر في هذا الموضوع بجانب المقدمة المختصرة لمجلد الأستاذ الأرثوذكسي السابق بجامعة هارفارد التي أشرنا إليها من قبل. راجع:
George Mastrantonis, Augsburg and Constantinople, Holly cross, 1982.

سبعة كما يقول أشعياء (١١: ٢) ولذلك أسرار الكنيسة سبعة التي تتحرك (أو تعمل) بالروح القدس. والحقيقة أن هذه ولا يزيد عليها أي أسرار أخرى ثابت من توزيع (النعمة)، لأن الأسرار إمَّا أنها تمس ميلاد البشر مثل الزواج في المسيح، أو الخلاص وهو الترتيب الذي يعلن في الطقوس التي تؤكد (نوال الخلاص) في (الأسرار) وبواسطتهم (الأسرار) المعمودية الميرون والشركة (الإفخارستيا) التي تعطى للكل. أما الذين قدسوا أنفسهم لله فهؤلاء ينالون الرسامة، والزواج الخاص بشعب الله. أما الذين يخطئون بعد المعمودية، هؤلاء ينالون التوبة والمسحة بالزيت المقدس الذي يعطى لغفران الخطايا ولتطهير الأدناس الكامنة في النفس. هذه تدعى الأسرار ***Mysteria*** لأننا نفهم أن العلامات المنظورة تعطي الفعل (العمل) الكامل السري ***Mystical***. وكل واحد من هذه الأسرار قد أسس من الأسفار كقانون بمادة ***Matter*** وشكل (منظور)"[١].

ملاحظات على نص البطريرك أرميا الثاني

أولاً: احتفظ البطريرك برقم سبعة لأنه خاص بمواهب الروح القدس حسب نبوة أشعياء النبي، وهو الرقم السري الذي ساد اللاهوت الشرقي البيزنطي وغير البيزنطي، كما لاحظ من قبل الأب الأستاذ مانيدروف وغيره من مؤرخي ولاهوتي الكنيسة الأرثوذكسية.

ثانياً: لا يمكن تجاهل الطقوس والحياة الليتورجية ككل، وهذا يعني أن الأسرار السبعة تمارس بشكل دائم مستمر، ولذلك حددت الممارسة مكانها الهام والضروري في حياة الكنيسة، لأن الأسرار السبعة تمس حياة المؤمنين وتشكل قلب الشركة مع الثالوث وفي الثالوث.

ثالثاً: كان الاتصال بالغرب وانتشار الكتب الكاثوليكية، بل ومعرفة اليونان باللغة اللاتينية ذائع، ولعل خير مثل على ذلك هو بطريرك القسطنطينية جناديوس الذي

---

(١) راجع: J. Pelikan, as cit pp 911 - 412

عاصر فتح القسطنطينية ونصَّبه محمد الفاتح بطريركاً على المدينة، وهو تلميذ وفيٌّ لكتابات توما الاكويني، وكان أحد العلمانيين الذين اشتركوا في مجمع فلورنسا الذي أشار إليه. ومن هنا جاءت التعبيرات اللاتينية عن العلامة المنظورة والمادة والشكل، فهذه هي التعبيرات التقنية المعروفة في الغرب على الأقل قبل مائتي سنة.

عودة إلى المنهج والمعطيات والنتائج

لماذا صمت كتاب "بدع حديثة" عن ذكر وثائق التاريخ؟ إما أن الأنبا شنودة لا يعرف التاريخ الكنسي وهذه مصيبة، وإما أنه يعرف ويغض النظر لكي ينشر ما لديه من آراء يضلل بها القارئ وشعب الكنيسة، وهذه مصيبة، بل خطية كبرى لأنها تزييف للإيمان.

اكتفى الأنبا شنودة بالقراءة الشخصية، ولم يستشهد بأي رأي من التاريخ الكنسي يسند رأيه، بل هاجم في قسوة كل من اختلف معه.

والمعطيات هي ذلك الضباب الكثيف.

والنتائج هي فقدان التمييز بين الأرثوذكسية وما لها من جذور تاريخية، وما يشبه الأرثوذكسية، فأين هو الأنبا شنودة من الأرثوذكسية؟ سؤال نترك إجابته للقارئ، فهو الحكم الآن.

الباب الثاني

الفصل الأول

الأسرار في لاهوت العصر الوسيط
أو
اللاهوت المدرسي في الغرب

بطرس لومبارد وهيو الفكتوريني

كانت رؤية الأب متى المسكين منذ ٤٠ سنة على الأقل ولا تزال هي العودة إلى الآباء والتحرر من النظام العقلي الذي فُرض على اللاهوت المسيحي في العصر المدرسي في الغرب، ولاهوت العصر الوسيط في الشرق الذي مزج بين اللاهوت المدرسي، وما تطور من نظام عقلي بعد القرن السادس عشر بانتشار اللاهوت الكاثوليكي في الشرق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر بواسطة جهود المبشرين الكاثوليك، وما ذاع من كتابات عربية للروم الأرثوذكس في القرن العشرين والتي كتبت للدفاع عن التعليم الأرثوذكسي ضد كتابات المبشرين البروتستانت ونقلت كل آليات اللاهوت الكاثوليكي التي تتفق مع الحياة الليتورجية الشرقية مثل كتاب مطران اللاذقية جراسيموس مسرة "الأنوار في الأسرار" وغيره.

بطرس لومبارد[1]

ولـد في مدينـة *Novara* مـا بـين ١٠٩٥م أو ١١٠٠م. ودرس في مدرسـة كاتدرائية *Rheims* ثم بعد ذلك صار مدرساً في باريس في كاتدرائية *Notre Dame* في عام ١١٤٥م وعرف هيو الفكتوريني وتأثر بكتاباته كما سنرى، ضاعت بعض مؤلفاته ولكن أهم ما وصلنا هو كتاب "*Sentences* الآراء أو وجهات النظر"، والعنوان من الكلمة اللاتينية *Sententiae* حيث عرض بطرس لومبارد وجهات نظر الآباء، وبشكل خاص آباء الكنيسة الغربية.

هذا الكتاب هو أحد المراجع اللاهوتية التي أسهمت في تطوير لاهوت العصر الوسيط كله، والعنوان يمكن ترجمته أيضاً إلى "مقتطفات"، وهو أول أنثولوجيا لاتينية ترتب موضوعات اللاهوت المسيحي، أي العقيدة، حيث تبدأ بالثالوث والبراهين على وجود الله – الخلق – الملائكة – المسيح – الفداء – الأسرار. وصار هذا التقسيم هو برنامج دراسة اللاهوت في كل معاهد اللاهوت في أوروبا في العصر الوسيط كله، ولم يشذ توما الأكويني عن هذا النظام، بل توسع في شرحه وجاءت الترجمة الإنجليزية *Summa Theologica* لما عُرف باسم "الخلاصة اللاهوتية" في ٢٦ مجلد صدرت عن دير الآباء الدومنيكان في إنجلترا سنة ١٩٢٣.

ما يجب أن نعرفه عن اللاهوت المدرسي أو لاهوت العصر الوسيط

امتاز اللاهوت المدرسي بعدة امتيازات هامة:

---

(١) اعتمدنا على الدراسات الحديثة لاسيما دراسة أستاذة العصر الوسيط:
Marcia L. Colish, Peter Lombara, Brill, 1994 and G.R. Evans, the Medieval theologians, Black well, 2001
ويعد كتاب الأستاذ يوسف كرم "الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط" الذي نشرته دار المعارف في عدة طبعات أهم وأدق المراجع العربية التي تعرض فكر ومؤلفات اللاهوتيين الأوروبيين.. راجع الفصل الخاص – بطرس لومبارد.. ولم تظهر عندنا بعد دراسة أفضل من دراسة الراحل الكريم الأستاذ يوسف كرم.

١– الدقة التاريخية في عرض الأفكار وشرح نصوص الكتاب المقدس كما وردت في مؤلفات الآباء، وهم أولاً وبشكل مطلق القديس أوغسطينوس، حتى أن الخلاف اللاهوتي بين لاهوتيي العصر الوسيط يمكن حصره في عبارة واحدة، وهي إما مع أوغسطينوس أو يختلف مع أوغسطينوس، ثم يوحنا الدمشقي وذهبي الفم، وقليل جداً من النصوص اللاتينية للعلامة أوريجينوس وديونيسوس الأريوباغي. ويجب أن نذكر هنا شرح الأناجيل الأربعة لتوما الأكويني التي اعتمدت على ذهبي الفم، وعلى نصوص يونانية ولاتينية لم تعد موجودة إذ دمرت المخطوطات في الحروب المتعاقبة في أوروبا.

٢– خلق نظام لاهوتي *System* يعتمد على:

أ– التعريفات *Definitions*

ب– جمع الاعتراضات والرد عليها.

ج– وضع كافة الأدلة التي تؤكد العقيدة وتدافع عنها.

وقد توسع في هذا توما الاكويني.

ولذلك تعد دراسة لاهوت العصر الوسيط ذات صلة بلاهوت الآباء، وكما سنرى بعد ذلك أنها اختلفت مع الآباء الشرقيين في عدة نقاط هامة سوف نقدمها للقارئ في مكانها الخاص بها.

٣– ومع توسع لاهوت العصر الوسيط أو اللاهوت المدرسي في شرح كل شيء يشمل الله، والكون، والإنسان، كان من اللازم أن يضم الشرح الرد على الأفكار، والآراء الفلسفية السائدة، وهو أمر لا يمكن أن تتركه الكنيسة أو تلزم الصمت بشأنه. لكن مع هذا التصدي تحول الدفاع المسيحي إلى سلسلة أفكار عقلية ونظام فلسفي أغفل عن غير قصد:

أ– الخبرة الليتورجية، وهي في الشرق تعد أهم ينابيع معرفتنا بالله.

ب– الخبرة المستيكية، ولذلك نشأ على جانب اللاهوت المدرسي نُسَّاك عظام في كل أوروبا، نشروا أهم ما يمكن أن يصل إليه الإنسان الأوروبي في التصوف، وهم

جيش كبير من الرجال والنساء بدأ الاهتمام به في القرن العشرين بسبب الجفاف الروحي الذي ساد أوروبا لاسيما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية.

هنا، ومن أجل الأمانة والدقة التاريخية نذكر أن الأب متى المسكين في مقدمة أول أعماله كتاب "الكنيسة الخالدة"، كان هو أول من لمح وأشار إلى ضرورة العودة إلى الخبرة الروحية، والشرب من ينبوع الاختبار الحي المستيكي، وهو بذلك سبق الاهتمام الأوربي بالخبرة المستيكية بما يزيد على ربع قرن من الزمان، قبل أن تبدأ أوروبا في نشر وتحقيق التراث الروحي المستيكي الذي نشر منه حتى الآن ٥٤ مجلد تحت عنوان "المؤلفات الكلاسيكية الروحية الغربية".

الأسرار الكنسية عند بطرس لومبارد

في الكتاب الرابع من "المقتطفات أو *Sentences*" يضع المؤلف التقسيمات التالية:

ما هو السر – لماذا أسست الأسرار؟ – عدد الأسرار.

في نفس العصر ومع زميل له وهو هيو الفكتوريني الذي كتب كتاباً كاملاً عن الأسرار[1] نجد نفس التقسيمات في أبواب أخرى أكثر:

ما هو السر؟ – لماذا أسست الأسرار؟ – خصوصية الأسرار الثلاثة وفاعليتها – مادة السر – هل الأسرار الثلاثة لازمة للخلاص؟

ولعل القارئ الذي درس ما نُشر عندنا عن الأسرار باللغة العربية يتذكر بعض هذه التقسيمات مثل ما هو السر؟ مادة السر؟.. الخ فهذه كلها أحد مساهمات اللاهوت المدرسي التي دخلت المؤلفات العربية المسيحية الأرثوذكسية. هذا في حد ذاته

---

(١) راجع: Hugh of St. victor, De Sacraments

وقد نشر النص مع حواشي هامة وترجمة إنجليزية جيدة جداً أستاذ اللغات القديمة بالجامعة الكاثوليكية في واشنطن:
Roy. J. Deferrari, Hugh of St Victor on the Sacraments, The Medieval Academy of America, No 58, 1951 and new edition 1991.

لا يشكل خطراً على الإيمان ولا على الأرثوذكسية نفسها؛ لأن المشكلة ليست في التقسيم والتحديد، بل المشكلة فيما فرضه علينا النظام اللاهوتي نفسه، ومن هنا تأتي المشكلة الثانية عندما نعتبر أن هذا النظام هو أساس الأرثوذكسية، وبالتالي إذا حاولنا أن نعود إلى الرؤية الشاملة والعريضة عند الآباء، تعتبر هذه العودة جريمة تستوجب القطع من شركة الكنيسة أو تدعو إلى التشهير.

والحقيقة هي أن جوهر التعليم يجب أن يحدد النظام، وأن يُشكل التحديد والتعريف بالأسرار، وأن يكون للممارسة الليتورجية نفسها دور في إعادة كتابة لاهوت الأسرار بما يتفق مع الممارسة، ومع الرؤية الشاملة التي نقرأها عند الآباء. هذه كانت ولا تزال أحدى مساهمات الأب متى المسكين التي تظهر واضحة في كل أبواب كتاب الإفخارستيا، حيث يعود إلى ما كان معروفاً عن الآباء ابتداء من أكليمنضس حتى القديس كيرلس. هذه مسيرة لاهوتية وتاريخية تجمع رحيق أزهار فردوس الله، أي كتابات آباء الكنيسة.

تعريف السر عند بطرس لومبارد[1]

السائد في لاهوت العصر الوسيط هو استخدام كلمة *Sacrament* بشكل واسع يشمل الرموز الخاصة بالرب يسوع في العهد القديم، وهذه عادة تسمى *The Sacraments of the old law* يضاف إليها أسرار العهد الجديد مثل قانون الإيمان ورشم الصليب وغيرها من ممارسات سوف نراها عند هيو الفكتوريني.

نص بطرس لومبارد

"السر هو علامة لشيء مقدس. وأيضاً السر هو سر خفي؛ لأنه سر خاص بالله، ولذلك السر يعلن شيئاً مقدساً وهو أيضاً شيء مقدس يُعلن. ويبقى السؤال هل

---

(1) راجع:
A Scholastic Miscellany, Library of Christian Classics, Vol. 10, SCM 1967 PP 334 FF

السرّ علامة؟ وهل السرّ هو فقط علامة منظورة لنعمة غير منظورة ؟ وهو علامة تعلو على ما هو منظور للحواس لأنها تدل على شيء باطن"[1].

وحيث أن كل علماء العصر الوسيط اعتمدوا على مؤلفات القديس أوغسطينوس، لذلك كان من الضروري أن نقدم للقارئ الفقرات التي اعتمد عليها لومبارد بشكل خاص من مؤلفات القديس أوغسطينوس لتعريف السر الكنسي.

(1) المرجع السابق ص ٣٤٦.

النصوص التي وردت عند القديس أوغسطينوس واعتمد عليها لاهوت العصر الوسيط في تحديد السر

أولاً: كتاب "مدينة الله":

«قدمت كنيسة العهد القديم حيوانات كذبائح، وهي التي نقرأ عنها. هذه الذبائح لم تكن تبرهن على شيء سوى أنها كانت علامات تدل على الغاية التي لأجلها نقترب من الله... والذبيحة هي سر منظور أو علامة مقدسة تدل على ذبيحة غير منظورة ... » (الكتاب العاشر – الفصل الخامس).

ثانياً: كتاب "العقيدة المسيحية:

"العلامة هي شيء يعطي معنى يدوم أكثر من الذي تدركه الحواس؛ لأن العلامة تجعل العقل يفكر عندما يرى العلامة. نحن نستنتج عندما نرى آثار أقدام، أي نوع من الحيوانات سار في الطريق. وعندما نرى دخاناً ندرك أن تحته نار. وعندما نسمع صوتاً ندرك أنه قد يكون صوت إنسان ومن الصوت نعرف المشاعر"(الكتاب الثاني – الفصل الأول – الفقرة الأولى).

"بعض العلامات من الطبيعة، والبعض الآخر اتفق عليه البشر. والعلامات الطبيعية لا علاقة لها بما اتفق عليه البشر. ونحن لم نتفق على أن الدخان هو علامة على النار، ولكن من الخبرة عرفنا أن هذه العلامة تدل على النار"(الكتاب الثاني – الفصل الأول – الفقرة الثانية).

«توجد علامات يستخدمها البشر لنقل أفكارهم وللتواصل، وبعض هذه العلامات خاص بالنظر، والآخر بالسمع، أو بالحواس الأخرى. لأننا عندما نومئ بالرأس تكون هذه علامة لعينين الشخص الذي نريد أن نعلن له رغبتنا، وحركة اليدين علامات لها أكثر من معنى. وقد أعطى الرب علامة من خلال الطيب الذي سُكب على قدميه، وفي سر جسده ودمه يعلن عن إرادته بواسطة حاسة التذوق. وعندما لمست المرأة نازفة الدم هدب ثوبه شفيت، وهذه علامة لها دلالة. وأغلب العلامات التي يستخدمها البشر للتعبير عن أفكارهم تحدد الكلمات المتبادلة معانيها»(الكتاب الثاني – الفصل الثاني – الفقرة الأولى).

«وتدل علامة الصليب على أن كل أعمالنا كمسيحيين نعملها كأعمال المسيح الصالحة» (الفصل ٤١).

«من هو المستفيد من العلامة العبد أم الحر؟ المستعبد للعلامة يقدسها عندما يستعملها دون أن يعرف دلالتها والمعاني التي تشير إليها. أما الحر فهو الذي يحترم العلامة التي أعطاها الله ويفهم قوتها ودلالتها وهو لا يوقر ما هو مؤقت بل ذاك الذي تدل عليه كل العلامات» (الكتاب الثالث – الفصل الرابع . الفقرة الأولى).

ولعل القارئ قد لاحظ أن القديس أوغسطينوس لم يكن يقدم تعريفاً للسر الكنسي، بل كان يشرح بشكل أساسي كيف تدل علامات مقدسة أو طبيعية على موضوعات وعلاقات بين الله والبشر مثل ذبائح العهد القديم أو حسب ما ساد بعد ذلك "أسرار العهد القديم" وغيرها من علامات. لكن الجيل الذي أراد أن يضع نظاماً عقائدياً يجعل كل العقائد محددة، اغترف من مؤلفات القديس أوغسطينوس ما رآه مناسباً لتحديد السر الكنسي. ومع أن القديس أوغسطينوس تناول الإفخارستيا في عدد من عظاته ومؤلفاته، إلاَّ أنه لم يضع لنا كتاباً عن الأسرار ولم يناقش الصلة بين العلامة المنظورة والنعمة غير المنظورة، لأننا في حقيقة الأمر إذا أخذنا ما ورد في العهد الجديد وكتابات الآباء. لا يمكن أن نعتبر أن الإفخارستيا جسد الرب ودمه هو علامة منظورة

تحتوي أو تعطي نعمة غير منظورة. لأن العلامة المنظورة هي الخبز وهو الغذاء والقوت والخمر الذي يفرح قلب الإنسان (مزمور ١٠٤: ١٥) وهنا نحن لا نأخذ نعمة فقط؛ لأن كلمة "نعمة" – مع أهميتها – غير كافية، لأننا نأخذ الرب يسوع المسيح نفسه الذي يُعلن عنه بكل جرأة ووقار وعلانية في القداسات، لاسيما عندما يقول الكاهن "القدسات للقديسين" أو عندما يقول "جسد ودم عمانوئيل إلهنا." ووقار الليتورجية في كلمات الاعتراف "أعترف إلى النفس الأخير..."، فهي عبارة تضع كل المؤلفات اللاهوتية على رف أي مكتبة. لأن الناطق بهذه الكلمات يدرك أنه يأخذ المسيح الرب في يديه أو حسب كلمات رسامة القس "يحمل جسد الرب". السرّ يعلو على ذلك التمييز العقلي بين المنظور وغير المنظور أنه "استعلان"[1] يتم بواسطة الروح القدس.

ما يجب أن نلاحظه هنا

أنه لا يوجد نص واحد لآباء الكنيسة الشرقية الذين كتبوا عن الأسرار مثل – كيرلس الأورشليمي وذهبي الفم – يؤيد ما جاء في نصوص بطرس لومبارد، والأهم هو أن أوغسطينوس نفسه لم يقدم تعريفاً للسر. هذا في حد ذاته ليس مشكلة بالمرة، وإنما المشكلة هي أننا أخذنا بما ورثناه عن لاهوت العصر الوسيط واعتبرناه المرجع الوحيد والأول والأخير لكل تعليم أرثوذكسي عن الأسرار، وعلى ذلك يكون اتهام الأنبا شنودة الثالث بأن الأب متى المسكين وغيره ينقلون عن الغرب، بلا أساس تاريخي بالمرة.

القصور الظاهر في تعريف السر عند بطرس لومبارد

أولاً: هناك غموض ظاهر، مصدره الأول والأخير هو أن العبارة "نعمة غير منظورة تُعطى بعلامة منظورة" هي عبارة غامضة مجردة ***abstract*** لا تعطي للسامع أو القارئ أي مضمون، ولذلك ينهار هذا التعريف تماماً إذا حاولنا أن نطبقه على الإفخارستيا رغم الإغراء الظاهر في الكلمات. لأن الخبز منظور، ولكن النعمة أي جسد

(1) لاحظ أن صلاة استدعاء الروح القدس تؤكد أن الروح القدس "يُظهر" أو "يُعلن" أن الخبز والخمر قد تحولا سرياً إلى جسد الرب ودمه.

الرب غير منظور، ولكن هذا ينفي الجانب المستيكي – عن حسن قصد – لأن الخبز ليس علامة منظورة، فهو بسبب استدعاء الروح القدس – كما يقول القديس كيرلس الأورشليمي ومعه كل الآباء – "ليس خبزاً عادياً"، فقد دخل الخبز بالتقديس بالروح القدس مجال عمل الروح القدس في النفس، وفي خدمة القداس لكي يعلن جسد الرب لنا حسب صلاة استدعاء الروح القدس التي لم توضع اعتباطاً، بل وضعت من أجل تأكيد إعلان جسد الرب ودمه بالروح القدس.

ثانياً: ونحن لا نبالغ إذ قلنا – كما قالت كل الدراسات الأوروبية – إن اللاهوت المدرسي نفسه هو الذي حفر أساس حركة الإصلاح البروتستانتية، ولذلك جاء جيل القرن السادس عشر ليسأل عن علاقة العلامة المنظورة بالنعمة غير المنظورة، ولكي يفتح له هذا التعريف باب الجدل حول أسلوب أو طريقة تحول الخبز والخمر وهو صراع عقلي فلسفي عقيم بلا معنى.

ثالثاً: وكما ذكرنا من قبل أن المياه في المعمودية لم تعد مياهً عادية، وكذلك الخبز والخمر. فإن غياب الروح القدس من التعريف صرف الأذهان – بسبب الرؤية المحددة الضيقة التي لا يقدمها التعريف – عن علاقة الأسرار بالروح القدس. وهو أيضاً بدوره عائد إلى بند آخر في لاهوت العصر الوسيط – أدركه توما الأكويني وقاومه بشدة، ولكن المقاومة فُقدت – وهو علاقة عمل المسيح كفادٍ ومخلص بعمل الروح القدس. وهكذا يجب أن ننبه الأذهان إلى أن حصر الفداء والكفارة في صلب الرب يسوع المسيح وحده – وهو ما يظهر في كتابات بعض الأساقفة الأجلاء – سوف يحفر أساس بناء بروتستانتية قبطية نابعة من داخل الكنيسة القبطية؛ لأن الخلاص الذي تم يوم الجمعة، يوم الصلبوت يلغي بعد ذلك كل فاعلية الأسرار، وهو ما سجله الأنبا شنودة نفسه في كتابه "خمس تأملات في أسبوع الآلام"؛ لأن كل شيء تم يوم الجمعة، وما سبق ذلك كان رمزاً.

تعريف السر عند هيو الفكتوريني

نورد هنا النصوص التي يعرف فيها هيو الفيكتوريني السر

«على الذين يريدون أن يدرسوا الأسرار أن يضعوا في الاعتبار أربعة مسائل تفرض نفسها على كل من يدرس: أولاً: ما هو السر؟ ثانياً: لماذا أُسست الأسرار؟ ثالثاً: ما هي مادة السر التي تكوّن السر ويتم تقديسها؟ رابعاً: ما هي عدد الأسرار حسب التعريف *Definition* والعلة (السبب) والمادة والفرق بينهما؟»[1].

"ما هو السر؟ قرر العلماء (علماء اللاهوت والكلمة اللاتينية هي أصل الكلمة الإنجليزية *Doctors* من التعليم *Doctrine*) تقديم اصطلاح مختصر لما هو السر: السر هو علامة مقدسة لشيء مقدس. وكما أنه يوجد في الإنسان عنصرين الجسد والنفس، وفي الأسفار الواحدة يوجد أيضاً الحرف والمعنى، هكذا في كل سر يوجد ما يمارس بشكل ظاهر ملموس، وآخر حسب الإيمان غير منظور نتقبله. ما هو ملموس ومادي *Material* هو سر. ما هو غير منظور وسري وروحي هو حقيقة السر. ما هو منظور ونمارسه علناً هو علامة على نعمة روحية، وهو ما نناله كغير منظور. ولكن ليس كل علامة لما هو مقدس يمكن أن توصف حقاً كسر مثل باقي الأسرار (لأن الكلمات التي تقال والعلامات المنظورة التي تستعمل للأمور المقدسة لا تنطبق على تعريف السر)[2] ولذلك السبب ما أشرنا إليه سابقاً يجب أن نأخذ فيه بما صاحب السر من كلمات وما تؤكده الكلمات، ولذلك إذا أراد أحد أن يحدد بشكل كامل ما هو السر يمكن أن يقول: السر هو مادة أو شيء محسوس نراه بالحواس وبشكل منظور، وهو يمثل أو يدل على ما أُسِّس لأجله السر ويحتوي بالتقديس شيئاً غير منظور ونعمة روحية"[3].

---

(1) راجع الجزء التاسع من الكتاب الأول – الفقرة الأولى ص ١٥٤ من ترجمة R. S. Deferrari وهي الترجمة التي سوف نعتمد عليها في كل الاقتباسات لسهولة الحصول عليها، وهي بعنوان:
On the Sacraments of the Christian Faith, 1951

(2) ما بين الأقداس هو في أصل النص.

(3) المرجع السابق ص ١٥٥.

ولم يكتف هيو الفكتوريني بذلك بل تابع شرحه:

«التعريف السابق الذي ذكرناه مقبول ونافع، بل وكامل حتى أننا وجدناه يصلح لكل الأسرار وليس فقط لسرٍّ واحدٍ»؛ لأن كل ما يحتوي على هذه العناصر الثلاثة هو سر؛ لأن كل سر يجب أن يحتوي على ما يدل عليه، أي ما أُسِّسَ السر لأجله والذي يصلح لكي يعلن السر. وكل سر يجب أن يحتوي على تأسيسه الذي يعلن ما يعطي، وأخيراً التقديس الذي يحتويه السر والفاعلية التي تعمل في الذين يتقدسون. والآن ما يجب أن نأخذه بعين الاعتبار، هو أن كل سر بكل يقين له علامة نابعة من تأسيسه وتعلنه: التأسيس الذي يضاف إلى العلامة حسب التدبير، التقديس الذي يتم بالكلمة أو بعلامة"[1].

ويضع هيو علامات الأسرار على هذا النحو:

«لقد جاء المخلص وأسس المياه وهي منظورة لاغتسال الأجساد لكي يعلن بهذه العلامة الاغتسال غير المنظور للنفوس بواسطة النعمة الروحية، ولكن ليس كل المياه هي علامة ولا هي سر، ولذلك يجب العودة إلى التقديس وإلى الكلمات التي تصاحب السر»[2].

ما هو غائب من التعريف بالسر؟

قبل أن ندرس الفقرة الثالثة عن أسباب تأسيس الأسرار يجب أن نشير إلى أن ما كان سائداً في العصر الوسيط، تم نقله في الكتابات العربية المسيحية التي نقلت لاهوت هذا العصر الوسيط، ويكفي لبيان ذلك أن نورد – على سبيل المثال – مثالاً واضحاً لا يمكن المكابرة فيه: يقول أستاذنا الكريم ومربي الأجيال الأستاذ حبيب جرجس في كتاب "أسرار الكنيسة السبعة":

---

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.

"متى أسس الرب سر المعمودية؟ والجواب هو في الأمر الإلهي في (متى ٢٨: ١٦) "اذهبوا... وعمدوهم...".

وبلا شك، هذا جزء وشذرة من الحق؛ لأن الأمر الإلهي بالتعميد هو الذي يعطي للمعمودية الشرعية الحقيقية لممارسة سر المعمودية، ولكن إذا عُدنا إلى طقس خدمة المعمودية في كل الكنائس الأرثوذكسية، وجدنا أن قلب هذه الخدمات هو معمودية الرب نفسه، حتى أن جرن المعمودية يسمى "الأردن"، وأننا عندما نعتمد نشترك في معمودية الرب، ولذلك السبب يأخذ سر المسحة مكانه الطبيعي بعد الخروج من مياه الأردن، أي مياه جرن المعمودية. أما إذا اكتفينا بالأمر الإلهي في متى ٢٨: ١٩ فإننا نجد أنفسنا أمام صعوبة واضحة في اكتشاف أصل سر الميرون أو المسحة، وهو ما أدى بحركة الإصلاح البروتستانتية إلى إسقاط سر الميرون؛ لأنه لا يوجد أمر إلهي خاص به في العهد الجديد على غرار الأمر الإلهي الخاص بالمعمودية الوارد في متى ٢٨: ١٩ والذي اعتبرته أصل المعمودية.

وعندما تضع الليتورجية معمودية الرب يسوع كأساس للمعمودية، فإنها تقدم اتجاهاً آخر غير اتجاهات العصر الوسيط. ولعل أهم ما يجب أن يقال هنا بالذات هو إن تعليم العصر الوسيط عن "وسائط" أو "علل النعمة" – وهو الذي دخل عندنا كوصف أو كتعريف للأسرار – هو الذي جاء أيضاً بفصل الأسرار عن الرب نفسه وعن الصليب والقيامة والروح القدس. ولم تعد الأسرار شركة في حياة الرب وموته وقيامته، بل أصبحت "وسائط للنعمة"، ومن ثمَّ تجيء حركة الإصلاح البروتستانتية لكي تؤكد بشكل جارف أن النعمة الوحيدة المجانية هي نعمة التبرير بالإيمان، وبذلك تخلع الأسرار من جذرها أو ينبوعها الحقيقي وهو الرب نفسه، وبذلك تصبح الأسرار رمزاً لما حدث على الصليب وليس شركة في الصليب والقيامة والعنصرة كما قلنا وأشرنا في الكتاب السابق.

لماذا أُسِّسَت الأسرار؟

عودة إلى نصوص هيو الفكتوريني، حيث يقول:

"نعرف أن الأسرار قد أُسست لثلاثة أسباب:

١- من أجل التواضع.

٢- من أجل التعليم.

٣- لكي تُمارس.

وبسبب التواضع، وبكل حق، لأن الإنسان هو كائن عاقل، ولأن خالقه قد وضع له الحياة المنظورة. وهو، أي الإنسان قابل لأن يتعلم ما هو غير منظور من الخليقة الأدنى منه، لذلك السبب يتواضع (الإنسان) لكي عندما يتعلم أن يتصالح مع خالقه. وقد خلق الإنسان وهو وحده دون الكائنات الأخرى يحمل غاية صلاحه في كيانه، بينما كل المخلوقات الأخرى قد وضعت تحت قدميه (مزمور ٨: ٦)"[١].

ويشرح باقي الأسباب بنفس الأسلوب وفي نفس الاتجاه، ولا نجد عنده أي إشارة إلى الشركة في حياة الرب وموته وقيامته، ناهيك عن معموديته.

الأسرار الثلاثة اللازمة للخلاص

في الفقرة ٨ من نفس الكتاب يذكر هيو الفيكتوريني ما يلي:

«أول ما يجب اعتباره هو الأسرار الثلاثة التي يجب أن نميِّزها؛ لأنه توجد أسرار تعطي الخلاص بشكل ظاهر وأساسي وفيها ننال الخلاص، وهي على سبيل المثال مياه المعمودية وتناول جسد الرب ودمه. وتوجد أسرار أخرى غير لازمة للخلاص، لأننا بدونها يمكن أن ننال الخلاص. إلاَّ أنها ذات فائدة لما تعطيه من تقديس وما تزرعه من فضائل يجب ممارستها مثل تقديس المياه التي نرشم بها أنفسنا عند دخول الكنيسة، وقبول

(١) إلى آخر ص ١٥٦ من نفس المرجع.

الرماد[1] وباقي الممارسات الأخرى التي تعطي لنا نعمة أوفر. وأيضاً توجد أسرار أسست لنفس الغرض (نعمة أوفر) لكي يتم التقديس المناسب الذي نحتاجه"[2].

وهكذا، بينما يرى المؤلف دائرة أوسع للأسرار ويعتبر المعمودية – التثبيت – الإفخارستيا، هي الأهم ولازمة للخلاص، يرى أن الأسرار الأقل تساهم في تقديس المؤمنين.

وقد ضم هيو إلى الأسرار الأقل: تكريس الكنائس (الكتاب الثاني – الجزء الخامس – الفقرة الأولى). وهو لم ينس الزواج والتوبة والاعتراف والرسامات. لكن رؤية هيو أشمل وأكبر لأن الذي يحركه هو التقديس ونوال نعمة أوفر يراها في علامة الصليب وغيرها من الطقوس التي تقرب الإنسان من الله وتقدسه. طبعاً سوف تضيق هذه الرؤيا بعد ذلك عند بطرس لومبارد، وسوف تأخذ بها الكنيسة الكاثوليكية عبر عدة مجامع كان آخرها مجمع ترنت في القرن السادس عشر الخاص بالتعليم بالأسرار السبعة.

الأسرار الأخرى حسب هيو الفكتوريني

في الكتاب الثاني – الجزء التاسع، وبعد أن وصف المياه التي يضاف إليها الملح – حسب تقليد الكنيسة الكاثوليكية – يقول هيو:

"لقد أسس البابا الكسندر – البابا الخامس بعد بطرس – أن يضاف الملح إلى الماء لكي يبارك به الشعب ومنازلهم تابعين مثال النبي أليشع الذي أضاف الملح إلى الماء لكي تزول مرارة الينابيع وتتحول إلى مياه عذبة...

والآن إن أهمية هذا السر في أن المياه تعلن ضرورة التوبة من الأعمال الماضية، والملح هو الإفراز والحذر من الأعمال التي نمارسها مستقبلاً..."[3].

---

(1) طقس روماني قديم توضع فيه رماد السعف الذي بقي من الكنيسة من أحد الشعانين على جبهة المؤمن في أربعاء الأسبوع الأول من الصوم الكبير.

(2) ص ١٦٤ من نفس المرجع.

(3) فقرة ٢ الجزء التاسع المرجع السابق ص ٣١٦.

وذكر بعد ذلك الرماد الذي يوضع في أربعاء الرماد في الصوم الكبير[1].

وفي الفقرة الثامنة وتحت عنوان من وضع هيو نفسه:

"الأسرار الأخرى التي تُمارس:

«توجد أسرار أخرى كنسية تمارس بأشياء، أو تخص بعض الممارسات والتي لا نريد أن نحصى عددها هنا لأنهم كثرة. ولذلك، هذه الدراسة المختصرة لا تشير إليهم. هذه الأسرار هي: النفخ على الوجه لطرد الشياطين (أثناء خدمة المعمودية)، والتي تعلن حلول الروح القدس الذي تهرب منه الشياطين (خروج ١٥: ١٠). وعلامة الصليب التي تدل على آلام المسيح والتي عندما توضع على الجبهة ينال المسيحي قوة، وعلى الوجه لكي يواجه الخطر المحتمل والقوات المعاندة تهرب... وقرع الصدر باليد علامة على توبة وندم القلب؛ لأن قرع الصدر يعلن طرد الأفكار غير النافعة الشريرة. وإحناء الركب مع إحناء الرأس والسجود الذي يعلن التواضع والوقار لطلب الغفران، ورفع اليدين يعلن المجد وطلب العطاء»[2].

تعليقٌ على النص

نستطيع أن نلمح هنا روح تقوى كنيسة روما؛ لأن هذه الممارسات كلها خاصة بالعبادة والصلاة ومتصلة بالأسرار،، ولذلك عندما تسمى الأسرار، فالاسم يؤكد وحدة الممارسة وهو أمر جليل وجيد.

ويقول هيو في الفقرة التاسعة من الجزء التاسع من الكتاب الثاني:

«الأسرار التي تقوم بالكلمات: توجد أسرار أخرى تقوم بالكلمات فقط، ولكل سر منها المعنى الخاص به. فقد أسس البابا سلستين *Celestine* ترتيل المزمور من داود

---

(1) فقرة ٦ الجزء التاسع – الكتاب الثاني ص ٣١٧.

(2) المرجع السابق ص ٣١٩.

قبل تقديم الذبيحة... وتسبحة الملائكة (لوقا ٢: ١٤) والتي يعتقد أن الأسقف هيلاري أسقف بواتييه[١] أضاف إليها بعض الإضافات...»[٢].

وفي الفقرة العاشرة من الجزء التاسع من الكتاب الثاني، يقول:

"الأشياء المقدسة التي ليست أسرار: توجد أشياء مقدسة في الكنيسة ولكنها ليست أسراراً. لأنها لا تعطي النعمة ولا التقديس إلاَّ أنها مقدسة لأنها خاصة بما هو مقدس ولا تنفصل عنه، مثل الأشياء التي تزين الكنائس والتي تتقدس لأنها تستعمل في التقديس... "[٣].

(١) أحد أبطال الإيمان النيقاوي ويعرف باسم أثناسيوس الغرب وله كتاب ممتاز في الثالوث وهو أحد المراجع التي اعتمد عليها أوغسطينوس في تأليف كتابه الكبير عن الثالوث.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٣) المرجع السابق ص ٣٢١.

الفصل الثاني

عدد الأسرار
في مجامع الكنيسة الكاثوليكية
في العصر الوسيط

أولاً
مجمع ليون Lyons الثاني ١٢٧٤م

دعي البابا غريغوريوس العاشر إلى انعقاد المجمع الذي حضره ٥٠٠ أسقف. وحضر من القسطنطينية البطريرك جرمانوس وعدد من الأساقفة. وكانت جلسة الافتتاح في ٧ مايو ١٢٧٤م. والعجيب أنه أثناء الاحتفال بعيد الرسولين بطرس وبولس في ٢٩. يونيو رُتِّلَ قانون الإيمان بدون إضافة المنبثق من الآب والابن ثلاث مرات باللغتين اللاتينية واليونانية.

ولكن عندما حان وقت صياغة الوثائق المجمعية، وضع لاهوتيو الكنيسة الرومانية عقيدة انبثاق الروح القدس من الآب والابن. وطُلِبَ من الإمبراطور ميخائيل الثاني الاعتراف بالإيمان الكاثوليكي، فقدم الوثيقة التي أشرنا إليها من قبل والتي أشارت إلى الأسرار السبعة، وإلى رئاسة البابا الروماني لكل الكنائس في العالم. ولذلك السبب لا

تدخل هذه الوثيقة، أي اعتراف الإمبراطور ميخائيل الثاني، ضمن الوثائق المجمعية في كتب التاريخ الكنسي الأرثوذكسي[1].

من الضروري أن نذكر هنا أن هذا المجمع بالذات كان نقطة تحول في لاهوت الكنيسة الغربية الكاثوليكية؛ لأنه قرر رئاسة البابا الروماني العالمية لأول مرة، أي بشكل رسمي. سبق هذا حركة تزوير لكتابات الآباء، وقد بدأت هذه الحركة بمجموعة من النصوص تنسب إلى الأسقف الأسباني وتعرف الآن باسم *Pseudo - Isidore* حوالي سنة ٨٤٥، وتضم هذه النصوص أقوال الآباء قبل القرن الرابع التي تؤيد رئاسة البابا الروماني وسلطانه المطلق حتى على المجامع. وكان البابا نيقولاوس الأول ٨٨٥ – ٨٦٧م هو أول من استخدم هذه النصوص. واتسعت هذه النصوص في عهد غريغوريوس السابع بعد أن ضم إليها النساخ الكتاب المعروف باسم *Liber Pontificalis* وجاء بعد ذلك يوحنا جراتيان *Gratian* وجمع الكل في أول كتاب للقانون الكنسي الروماني اشتهر باسم *Concerdia Discordantium Canonum* واختصر الاسم إلى *Decretum Gratiani* ونشر عام ١١٥١م واشتهر بين لاهوتي الكنيسة الكاثوليكية مثل لومبارد والاكويني.

وإلى جراتيان بالذات تنسب كل الدراسات الكاثوليكية تسرب الفكر القانوني والشرعي إلى كتب اللاهوت، وإلى المحاولات الدائمة لوضع اللاهوت المسيحي (الغربي) في إطار قانوني، يستند إلى سلطة الكنيسة وإلى تعليم الآباء، ولكن على أساس القانون

---

(١) أثناء إعداد هذه الدراسة نشر الأستاذ السابق في جامعة هارفارد أربع مجلدات عن الاعتراف بالإيمان. والأستاذ Jaroslav Pelikan كان قساً لوثرياً وانضم إلى الكنيسة الأرثوذكسية منذ ١٠ سنوات. راجع المجلد:
The Creeds and Confessions of Faith in the Christian Tradition Vol. I Yale University press, 2003 PP 245 FF

راجع دراسة المؤرخ الكاثوليكي:
Johann Joseph 19 na 2 vo, Döllingek, The Pope and the Counil, 1870, PP 76-79 and 115 - 116

والمؤرخ الأرثوذكسي:
Aristeides Papadakis, The Christian East and the Rise of the Papacy St. Vladimir, 1994, PP 158 – 167.

الكنسي. ومن هنا بالذات جاءت فكرة الخطية بأنها اعتداء على كرامة الله، وإهانة شخصية موجهة إلى قداسته، واختفى التعليم القديم بأن الخطية هي موت الإنسان وأن الاعتداء أي "التعدي" هو خروج على صورة الله ومثاله، وانحراف عن غاية خلق الإنسان أي التشبُّه بالله.

وعندما يدخل الفكر القانوني ويصبح هو قاعدة شرح العقيدة، يحدث تغيير في قوام الشرح نفسه على الوجه التالي:

١– يتم تحليل وتحديد العقيدة على أساس المظهر والعلاقة الخارجية، فتصبح الخطية تعدي على الله، في حين أن التعدي هو "تعدي" أو "خروج" الإنسان عن أصله وابتعاده عن غاية خلقه. وعندما يتم تحديد كلمة "تعدي" قانونياً يسقط الجانب الشخصي، أي الفساد الروحي الداخلي.

٢– يختفي الجانب المستيكي تماماً. وهنا يجب أن نذكِّر القارئ بأن أحد مساهمات الأب متى المسكين، هو العودة الواضحة والصريحة إلى العلاقة الشخصية بالمسيح. هذا يشغل المكانة الرئيسية في حياته كراهب ومتوحد ثم لاهوتي قبطي اجتاز مساحات واسعة من الدراسات العالمية في الكتاب المقدس. وهي دراسات تخلو من "الإسقاطات" *Projections* المذهبية *Sectarian*، ويلمح ذلك القارئ الذي تتبع رحلة الأب متى المسكين أو سيرته الروحية قبل وبعد الاعتكاف في وادي الريان. هكذا يكتب في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية.

* "لعل أصعب ما واجهناه في تصنيف هذا الكتاب هو تجريده من الروح التمييزية تجريداً يكاد يكون كاملاً ومنسجماً، ولا يخفي عن القارئ أن النزاع التقليدي في اللاهوت النسكي أو النصوص سواء بين الإسكندرية وأنطاكية، أمر يطول شرحه وقد اعترف به العلماء حتى جعلوه خصومة مما أدى إلى تحطيم وحدة الروح المسيحية وتفتيت العبادة والصلاة من أنحاء العالم"[١].

---

(١) ص ٩ الطبعة الرابعة ١٩٧٦.

هذه هي ذات الرؤيا التي يقدمها وهو يشرح – في مدخل إنجيل يوحنا – كافة التيارات الفكرية والمذهبية، ويبرز الأصل العبراني للإنجيل[1].

وبينما هو يحرص على تقديم خبرة وتعليم القديسين في كل مؤلفاته، إلاَّ أنه يحذر القارئ «هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها، وهي بالرغم من أن خبرات القديسين الإيمانية تنير أمامنا طريق المعرفة إلاَّ أنها يستحيل أن تمدنا بالإيمان الحي دون شهادة خاصة تنبثق من عمق خبرتنا وحياتنا، فالمسيح ينبغي أن يكون لك كما هو لكل قديس، لأنه مات عنك شخصيا» (المرجع السابق ص ١٢).

ويضيف إلى هذا التحذير، تلك الحقيقة الأرثوذكسية التي تؤكد «أن المسيح أعطانا لا أن نعرفه أو نؤمن به فقط، بل أن نحيا به. وأعطانا الروح القدس لا لكي يعلمنا فقط، بل ليسكن في داخلنا ويغيِّر شكلنا ويجدد ذهننا ويأخذ كل يوم مما للمسيح ويعطينا» (المرجع السابق ص ١٢).

ولعله أدرك أن الكتاب سيكون مصدر أحاديث وتسلية ورياضة عقلية، ولذلك عاد إلى الخبرة المستيكية الشخصية في عبارات قاطعة:

* "الصلاة تحدث فينا تغييراً جوهرياً متواتراً يوماً بعد يوم".

* "الصلاة انفتاح على قوة الله الفعالة غير المنظورة وغير المحسوسة". (ص ١٢ – ١٣).

والمجال لا يسمح بعرض ما جاء في مقدمات فصول الطبعة الثانية لكتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية؛ لأن هذا يجب أن يقوم به القارئ نفسه. كما أن التلخيص هو إخلال بما حرص المؤلف على أن يقدمه، ومع ذلك هذه بعض عبارات من شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول، والمسافة الزمنية بينه وبين كتاب حياة الصلاة قرابة ٢٥ عاماً، ولكن الاتجاه الروحي الأرثوذكسي هو نفسه لا يتغير:

---

(1) راجع مقدمة شرح إنجيل يوحنا للأب متى المسكين ونقده الشديد لما ورد في مدارس اللاهوت في الغرب.

* "هنا يلزمنا أن ننبه القارئ أن يحترس من شرح بعض علماء الكتاب المقدس، الذين رأوا في كلمة "ابن الإنسان" هنا بالذات، أي من جهة أكل جسد ابن الإنسان وشرب دمه... هذا أمر مؤسف ومحزن للغاية"[1].

ولاحظ تعليقه على كلمات الإنجيل "كل من يرى الابن...":

«كلمة يرى هنا لا تمُت إلى النظر الطبيعي بالعين ولكنها رؤية بالقلب والفكر الروحي المدرب بالكلمة. وهي تمُت إلى معنى التأمل الذي نُسميه في التدريب الصوفي "الثاؤرية"، وفيها يرتقي الفكر إلى رؤية الحقائق الإلهية حيث يستنير الفكر بالنور الإلهي الداخلي»[2].

* «الخبز الحي والماء الحي ونور الحياة هو هو شخص المسيح، عندما يؤمن به الإنسان يصير خبزه الجديد وماءه الجديد ونوره الجديد في حياته الجديدة. هنا لينتبه القارئ لأن معنى هذا أن كل استعلانات المسيح يستحيل فهمها أو قبولها أو الإيمان بها أو الحياة فيها بدون المسيح نفسه. فهي ليست مدركات يمكن أن تُفهم، بل هي واقع حياة في حياة»[3].

* «أنا هو القيامة. فهو لم يقل أن القيامة عمل يحضره لنا أو يقودنا إليه أو يعدنا به ولكنه يقول أنا القيامة. إنها كيانه الخاص»[4].

الآثار السلبية للشرح القانوني للعقيدة المسيحية

١- لعل أهم هذه الآثار هو سلخ التعليم عن المنهج المستيكي. وعندما تصاغ عبارات قانونية منطقية، فإنها تصبح في متناول منطق الإنسان وفكره وتقطع عليه سبل الاكتشاف. وعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما نقول إن المسيح دفع ثمن خطايانا على

---

(١) شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول ص ٤٤٥، راجع أيضاً شرح رسالة غلاطية ص ١٠٤ - ١٠٧.
(٢) شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول ص ٤٣٢.
(٣) شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول ص ٥٢٠.
(٤) المرجع السابق ص ٦٧٩.

الصليب، ينفصل دم الرب على الصليب من سر الإفخارستيا، ومنطقياً تصبح الإفخارستيا ذكرى، وينفصل خميس العهد عن الجمعة الكبيرة، بل ننسى "فعل الإرادة" ورغبة الرب أن يقدم ذاته بحرية وبمحبة حتى قبل تجسده.

لقد أدرك المعلم العظيم الأب متى المسكين خطورة القوالب الفكرية القانونية على العقيدة، وتجنب الدخول في مهاترات فكرية مع مدارس اللاهوت لاسيما مدارس العصر الوسيط في الشرق والغرب. ولذلك عندما يحس داخلياً بقوة وإحساس الرؤيا الصوفية بذبيحة الصليب، يقول: "فلينتبه القارئ، بل وكل عالم وباحث وشارح، بل وكل لاهوتي، أن ذبيحة الصليب هي المسيح ككل"[1].

٢- عندما شرح الأب متى المسكين نظريات الفداء، فقد كان يقدم للقارئ المسيحي الذي لا يعرف إلاَّ اللغة العربية، وإذا كان يعرف غيرها فهو لا يملك الوقت أو الجهد لكي يدرس الشرح المتعدد في الفكر العالمي المسيحي أي الشرقي والغربي معاً. فقد أدرك الأب متى المسكين أن العزلة الثقافية التي سادت الشرق انتهت تماماً بفضل ما جاءت به التكنولوجيا الحديثة من "ثورة المعلومات". خصوصاً بعد أن تحولت المجلدات إلى *CD* يضم من ٢٠ - ٥٠ مجلد.

والنظرية اسم شائع يطلق على محاولات تفسير موت الرب يسوع على الصليب، وليس على الإيمان أو العقيدة المسيحية أو الأرثوذكسية بشكل خاص. تجد هذا منشوراً في كل كتب اللاهوت المعاصرة الكاثوليكية والأرثوذكسية وغيرها. ولعل جهود الأستاذ الأرثوذكسي *Jarsolav Peliken* الأستاذ السابق في جامعة هارفارد، وهي من أقدم وأكبر معاهد التعليم في العالم والذي شغل فيها منصب أستاذ كرسي تاريخ العقيدة حتى التقاعد، تدل على ما قلناه، فقد نشر خمس مجلدات بعنوان: *The Christian*

---

(١) المجلد الأول شرح إنجيل يوحنا ٤٤٥ - ٤٤٦.

Tradition, A History of the Development of Doctrine تبدأ بالعصر الرسولي وتنتهي عند العصر الحديث[1].

ومن دراستنا لتطور تاريخ شرح موت الرب على الصليب وليس الإيمان، يتبين لنا أن العقيدة ثابتة شرقاً وغرباً في كل أرجاء الكنيسة في كل مكان، ولكن شرح هذه العقيدة الثابتة اختلف، لا من أجل تدمير العقيدة، بل من أجل تقريب العقيدة إلى أذهان وقدرات المؤمنين العقلية، وقد يكون الشرح مفيداً للقضاء على مصاعب فكرية واعتراضات ثقافية وعادات اجتماعية، تجند القوة وتمجد العنف[2]، ولكن هذا الشرح قد يتحول إلى قتل غير متعمد، قتل عن جهل لجوانب ضرورية للإيمان نفسه، وهي تذوق، أو حسب الكلمة المفضلة للأب متى المسكين "التلامس" مع الرب يسوع وسكنى الروح القدس وهو – حسب تعبير الآباء وهو تعبير الأب متى المسكين المفضل – أن يُستعلن المسيح في القلب، وفي داخل الحياة الروحية للإنسان. وهكذا، يدرك الأب متى المسكين أن دفع ثمن الخطايا شفاء لشعور الإنسان المسحوق تحت وطأة ثقل الذنوب والخطايا، ولكن هذا ليس هو الصليب كله ولا هو الفداء كله،. ولكنه جزء من الكل لا يمكن أن يحل محل الكل؛ لأننا – تدريجياً – عندما نتمسك بالجزء، ننسى الآب وننسى الروح القدس، ويصبح الخلاص محصوراً في أقنوم واحد هو الابن المتجسد، ويصبح الشرح هنا هو "نظرية" لأن النظرية دافعت عن، وأبرزت أحد الجوانب.

وبنفس الحس الروحي الأرثوذكسي – وبينما هو يشرح كلمات الرب يسوع عن الإفخارستيا – يأخذ القارئ إلى المجال الروحي الشرقي، حيث الثالوث هو أساس كل شيء في المسيحية، فيقول: «و الذي قدم هذه الذبيحة هو الآب والابن معاً، الآب بسبب حبه للعالم، والابن بسبب حبه للآب، فهي ذبيحة حب فيها كل حب الآب

---

[1] الناشر جامعة شيكاغو – عدة طبعات، الطبعة الأولى ١٩٧٨

[2] راجع:
J. Pelikan, Vol 3, The Growth of Medieval Theology (600 – 1300) Chap. 3, PP 106 FF
راجع أيضاً شرح رسالة غلاطية للأب متى المسكين صفحات ١٠٤ – ١٠٧

وكل حب الابن. جوهرها حب إلهي مذبوح... فالموت على الصليب الذي تم للمسيح اشترك فيه الآب والابن اشتراكاً فعلياً... »[1].

وعن الروح القدس يقول في شرح كلمات الرب للسامرية: «الماء الذي أعطيه هو عطية الاستعلان التي إذ سكبها على قلب الإنسان ووعيه، فإنه يتعرف على حقيقة المسيح، فيدخل مجال الحق الإلهي وينتمي بروحه إلى السماويات. الماء الذي أعطيه هو نعمة استعلان بالروح القدس، وبالاستعلان يتجلى المسيح في قلب الإنسان»[2].

لقد جعلت النظريات الإيمان موضوعاً عقلياً يُبحث في كل تفاصيله ومحتوياته وكل الاعتراضات الممكنة وغير الممكنة. ولعل "الخلاصة اللاهوتية" لأكبر علماء العصر الوسيط، وهو توما الاكويني وهي أكبر موسوعة لاهوتية كتبت حتى الآن، هي البرهان الأكبر على سيطرة الفكر النظري، إلاَّ أن الفكر النظري والفلسفي ساد وغلب وترك العقل أمام مجلدات كبيرة لا تحض الإنسان على التذوق والخبرة أو حسب كلمات الأب متى المسكين "استعلان" المسيح في القلب بالروح القدس وهي خلاصة الحياة المسيحية.

٣- لعل الفرق الظاهر بوضوح شديد أمام الدارسين، هو أن الصياغة القانونية محددة لأن القانون يحصر ويحدد بدقة كل ما يقدمه، وهو لذلك يعرض الباحث والقارئ إلى أن يكتفي بما درس، وأن يجد في الصياغة "بدلة جاهزة" قد تناسبه وقد يضطر إلى إدخال بعض التعديلات عليها لتناسبه. وهذا بالذات ما يمنع اكتشاف سر المسيح. كما أن الصراع بين "القانون" و"السر" هو أصل وجوهر المشكلة في كل الدراسات اللاهوتية الحديثة والقديمة لاسيما لاهوت العصر الوسيط. ولعل كلمات الأب متى المسكين كافية، وهو إن كان يتحدث عن الإفخارستيا إلاَّ أن الحديث هو عن كل شيء عن رؤية المسيح في حياتنا. فهو يعبِّر عن أسفه الشديد لسقوط "السر" أمام قوة وحجة المستوى المادي الطبيعي أو الفكر القانوني، فيقول: «وللأسف، فإن هذه الخصومة وهذا الانقسام قائمان

---

(١) شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول ص ٤٤٦.

(٢) شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

حتى اليوم بين الكنائس، على نفس أساس الانقسام في الفهم، بين الارتفاع إلى المستوى الروحي السرائري وبين النزول إلى المستوى المادي الطبيعي»[١].

فالأصل – كما يقول الأب متى المسكين – "هو قبول الإيمان" الذي يؤدي إلى استعلان أسراره باستنارة الروح. وهذا ما حاوله المسيح مع اليهود: أن يقبلوه أولاً؛ لكي يستعلن لهم حقيقته، ولكنهم أصروا على "كيف" و "لماذا" و "من أعطاك هذا السلطان" و "أين هو أبوك؟"، فظلوا محبوسين في ظلمة الشك أبداً تحت سلطان العقل والمعقول: "كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل"[٢].

ولم يترك المسيح الأسئلة بلا إجابات، بل كما يقول الأب متى المسكين: «إنما كعادته، كانت ردوده تحتاج إلى من يكشف عن عمق معناها والأسرار التي تحويها»[٣].

وهذا غير المستوى المادي الطبيعي، أي مستوى الفهم حسب الشريعة أو الناموس. وموضوع الناموس أو الشريعة يحتاج إلى مجلد كامل يضم كل اختلاجات قلب الأب متى المسكين وإحساسه الواضح بأن الناموس أو الشريعة لا يمكن أن يقود الإنسان إلى المسيح. وهو ما يشغل شرح رسالتي رومية وغلاطية. وهو بكل أسف ما عجز الأنبا شنودة عن فهمه، فكتب ما كتب عن "محاربة الناموس والأعمال[٤].

ولعل القارئ قد انتبه إلى أن عنوان شرح رسالة غلاطية قد وصف هذه الرسالة بأنها "رسالة دفاع عن حق الإنجيل". كما عبَّر عن أهميتها "كحاملة لعلم الحرية لإنجيل البر المجاني" (ص ١٢ من شرح رسالة غلاطية). وغني عن البيان أن المقدمة التي كتبها الأب متى المسكين لها ذات أهمية الشرح، فقد حدد الإطار كله لاسيما في الفصل الخاص بـ"حق الإنجيل" (ص ٤٦ وما بعدها). وحقيقة الأمر أن الأب متى المسكين – بعد كل التحذيرات الخطيرة بالارتداد عن المسيح (ص ٤٧) بالعودة إلى الممارسات الناموسية –

---

(١) شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول ص ٤٤٣.
(٢) شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول ص ٤٤٣.
(٣) ذات المرجع السابق، حيث كشف عن المستوى الروحي السرائري والمستوى المادي الطبيعي، ص ٤٤٣.
(٤) سوف نتناول الرد على هذه الكتب في الكتاب الخامس في الرد على "بدع حديثة".

نجده يدفع كل القراء، في شفقة إلى ميناء الخلاص «نحن متمسكون وممسكون لا بفكرة ولا بمبدأ، بل بقوة أنشأها المسيح بموته، وقوة أنشأها المسيح بقيامته» (ص ٥٩ شرح غلاطية).

ثانياً

مجمع فلورنسا FLORENCE

اعتمدنا في هذه الدراسة على الوثائق الرسمية التي صدرت من الكنيسة الكاثوليكية والدراسات الكاثوليكية والأرثوذكسية التي نشرها علماء الكنيستين[1]. ويعتبر هذا المجمع الذي انعقد في ظروف سياسية صعبة هو أول اجتماع شمل اليونان – الروس – الأرمن – الأقباط – الأحباش – الموارنة – النساطرة.

ويعتبر الكاثوليك هذا المجمع، امتداد لمجمع آخر سبقه، وهو مجمع بازل *Basle* الذي عقد سنة ١٤٣١م ودعي إليه البابا مارتن الخامس. ويعتبر الكاثوليك هذا المجمع (فلورنسا) هو المجمع السابع عشر (المسكوني) نظراً لاشتراك أغلب الكنائس فيه. وتقييم المجمع تاريخياً ولاهوتياً هو موضوع حائر بين علماء الكنائس.

عموماً، يعتبر علماء الكنيسة الكاثوليكية أن المجمع انعقد بدعوة من البابا يوجين *Eugene* الخامس بعد انتقال البابا مارتن الخامس، وأن جلسات المجمع الأول حدثت في مدينة *Ferrara* ١٠ يناير ١٤٣٨م ولذلك تسمى الوثائق الكاثوليكية مجمع *Ferrara- Florence*. واكتسب هذا الاجتماع أهميته نظراً لاشتراك الإمبراطور البيزنطي يوحنا بيلالوجيوس *Palaeologus*، وحضر بطريرك القسطنطينية يوسف، ومثَّل بطريرك الروم في الإسكندرية غريغوريوس *Hamma*. وكان أشهر الذين حضروا من أساقفة اليونان هو مرقس أسقف أفسس الذي عارض كل قرارات المجمع ورفض التوقيع

(١) تعد دراسة الأب اليسوعي Joseph Gill الأستاذ بالمعهد البابوي للدراسات الشرقية – روما. وهي أفضل ما صدر باللغة الإنجليزية.

عليها وكتب كتاباً هاماً ضد عقيدة المطهر. ومن الروس حضر ايسيذوروس مطران كييف *Kiev* الذي أخذ تفويضاً من بطريرك أنطاكية للروم.

درس المجمع انبثاق الروح القدس من الآب والابن *Filioque* وكانت أهم وثائق الجانب الكاثوليكي هو كتاب أنسلم أسقف كانتربري، الذي دافع فيه بكل جهد عن هذا التعليم الغربي، كما درس موضوع المطهر.

من الضروري أن نقرأ بدقة العبارة التي وردت في الجلسة السابعة عشر في قصر البابا أولاً في فلورنسا، ثم الجلسة السابعة والعشرين وهي تقول:

"إن الابن هو في ذات جوهر الآب، ولذلك له دور في انبثاق الروح القدس، ولكن مع ذلك يظل هذا التعليم غريباً ومرفوضاً لأن إضافة "من الآب والابن" لم تحدث في مجمع وبموافقة كل الكنائس، والأهم من ذلك أن الابن هو مصدر الروح القدس في التدبير أي في عمل الخلاص لا يعني أنه مصدر الروح القدس في جوهر اللاهوت".

مجمع فلورنسا والكنائس الشرقية الأرثوذكسية

يهمنا هنا حضور الكنيسة القبطية التي مثلها القمص إندراوس رئيس دير الأنبا أنطونيوس. بعد أن وصلت الدعوة بواسطة القاصد الرسولي *Alberto de Sarteano* في ٣ أكتوبر ١٤٣٩م، قبل الأحباش الدعوة التي وصلت في سنة ١٤٤٠م بواسطة الرهبان الفرنسيسكان في القدس، وأرسلوا الراهب بطرس. عقد بطريركنا الانبا يوأنس مجمعاً ربما في ١٢ سبتمبر ١٤٣٩ وتم الاتفاق على إرسال الراهب القمص إندراوس رئيس دير الأنبا أنطونيوس، الذي قدم رسالة من الأنبا يوأنس كتبت باللغة العربية وترجمت إلى الإيطالية ثم اللاتينية. في ٣١ أغسطس ١٤٤٠م وصل الأقباط والأحباش بعد سفر اليونان والروس، ولا نعرف بالضبط ماذا حدث في الجلسات مع الوفدين القبطي – الحبشي، لكن من الضروري أن نتوقف قليلاً عند الوثيقة الرسمية البابوية *Bull* المعروفة باسم *Cantate Domino*. وهي نص طويل يشرح الإيمان بالثالوث، ويحرم

جميع الهرطقات، ويحدد عدد أسفار الكتاب المقدس، ثم يشرح التعليم الخاص بموقف الكنيسة من شريعة العهد القديم، وتقول الوثيقة:

"نؤمن بثبات ونعترف بأن التعليم الخاص بالناموس في العهد القديم، أي الناموس الموسوي الذي يجب أن يقسم إلى: الاغتسالات الطقسية والطقوس المقدسة، والذبائح التي تحتوي رموزاً مقدسة، قد أعطيت لنا؛ لأنها تخبرنا بما سوف يأتي في المستقبل، ومع أنها كانت خاصة بعبادة الله في ذلك الوقت إلاَّ أنه بعد مجيء الرب قد تمت هذه الرموز وأبطلت بسرائر *Sacraments* العهد الجديد. وأن الذين، بعد آلام الرب، يضعون رجائهم في الاحتفاظ وممارسة (شرائع العهد القديم) وأنهم يخضعون لها كضرورة للخلاص – كما لو كان الإيمان بالمسيح غير قادر على أن يقدم لهم الخلاص، لأنه بعد انتشار بشارة الإنجيل لا يمكن الخضوع لهذه الممارسات لأن الخضوع لها يهدد الخلاص الأبدي للذين يخضعون".

هناك خلاف بين المؤرخين حول الجزء الخاص بطبيعة المسيح، حول ما إذا كان اسم القديس ديوسقوروس ضمن الذين شملتهم اللعنة، فقد لعنت ***anathematize*** الوثيقة كل الهراطقة لاسيما أوطاخي ونسطور ولكن الطبعات الحديثة لا تذكر اسم القديس ديوسقوروس، عكس ما ورد في دراسة الأب اليسوعي *J. Gill* (راجع ص ٣٢٦).

المجمع والتعليم بالأسرار السبعة

كما ذكرنا من قبل كان التعليم بالأسرار السبعة مقبولاً في مجمع ليون ١٢٧٤م من الكنائس البيزنطية، ولذلك لم يناقش بالمرة بعد ذلك. ولم يناقش التعليم بالأسرار السبعة في الكنائس الشرقية الأرثوذكسية بالمرة، ولكن في الجلسة الثامنة بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٤٣٩م وفي الوثيقة البابوية *Bull* الخاصة بالاتحاد مع الأرمن تقول الوثيقة إنه تم الاتحاد مع اليونان وبعد إعلان اللعنات على الهراطقة وفي الفقرة الخامسة:

"توجد أسرار سبعة للعهد الجديد: المعمودية – التثبيت *Confirmation* – الإفخارستيا – التوبة – المسحة الأخيرة (مسحة المرضى في الشرق) – الكهنوت، والزيجة. هذه الأسرار تختلف اختلافاً كبيراً عن أسرار العهد القديم؛ لأن هذه الأخيرة (أسرار العهد القديم) لم تكن مصدراً للنعمة، بل رموزاً للنعمة التي سوف تعطى بآلام الرب".

وتشرح الوثيقة بعد ذلك في فقرات مختصرة كل سر، وتقدم الوثيقة خلاصة اللاهوت المدرسي الذي أشرنا إليه من قبل وهو أن صحة كل سر، تعتمد على – حسب كلمات الوثيقة – لاسيما الأسرار الثلاثة: المعمودية، والتثبيت، والإفخارستيا على مادة السر، الكلمات، وشخص خادم السر الذي لديه النية لأن يعمل ما تريده الكنيسة. وإذا لم تتوفر هذه العناصر الثلاثة، فإن السر لا يحدث "*Not Effected*".

الفصل الثالث

عدد الأسرار
وما هي البدعة الحديثة؟

عندما تم اختصار التاريخ – سواء أكان ذلك عن جهل، أو عن حسن نية، أو بسبب كراهية مفرطة تقعد بالباحث عن البحث والدراسة – فقدنا ما جادت به علينا دراسة التاريخ، وهو ما يمكن الإشارة إليه في النقاط الآتية:

أولاً: كان تنظيم عدد الأسرار وحصرها في سبعة هو شغل الغرب، فهو تنظيم تم بعد انقسام الكنيسة، وظل مقبولاً في وحدة كنائس روما وبيزنطة. بينما ظل الأقباط والسريان والأحباش والأرمن خارج هذه الوحدة رسمياً، وإن كانت كل الوثائق تشهد بوجود تقارب أعظم مما هو الآن. فقد نقل أولاد العسال "فقه النصرانية" لأبي العرج ابن الطيب "النسطوري"، ثم شرحه للأسفار – تفسير المشرقي. ودخل كتاب "سلم الفضائل" ليوحنا الدرجي إلى الحياة النسكية، ومعه ميامر مار إسحق السرياني، ويوحنا المعروف باسم الشيخ الروحاني. ونقلنا ترانيم عيد القيامة من الطقس البيزنطي، بل جاء الحجاج الأقباط من القدس وفلسطين بالأيقونات البيزنطية التي لا تزال تضيف مسحة من الجمال على كنائس أبي سرجة، والست بربارة، و أبي سيفين في مصر القديمة، وأسماء الفنانين الروم لا تزال موجودة على هذه الأيقونات.

وهكذا كان "الشيطان" أو "العفريت" الذي أسميناه الغرب هو العون الذي أعطى لنا قدرة على مواجهة حركة الإرساليات!! واستفادت الكنيسة القبطية من مؤلفات الكاثوليك والإنجيليين، وهو ما أكده اعتراف الأنبا شنودة نفسه أنه كان يدرس العهد

القديم من تفاسير "متى هنري" وكتب الأخوة. والأنبا شنودة تلميذ وفي لأشهر معمداني في العصر الحديث وهو القس "سبرجن".

ويبقى التساؤل المخيف حقاً عن الدافع الحقيقي وراء اتهام الأب متى المسكين والذين عادوا من بعثات في أوروبا، بأنهم ينقلون عن الغرب، وهو نوع من العبث الطفولي الذي لا يليق لأنه خاص بالإيمان والعقيدة ويمس ضمائر الناس.

ثانياً: تبرز حقيقة أخرى تاريخية، وهي الوثائق المجمعية في كنائس روما وبيزنطة الخاصة بالأسرار، ولكن أين هي الوثائق والقرارات المجمعية التي صدرت من الكنيسة القبطية الخاصة بالأسرار – تكريم الأيقونات – الأصوام (العذراء – الرسل).

لقد كانت دهشة الدارسين كبيرة عندما لجأ الأنبا بيشوي إلى التمييز بين الجوهر والقوة، وهو تمييز مجمعي للكنائس الأرثوذكسية، كان بطله الأكبر هو القديس غريغوريوس بالاماس.

كانت دهشة الدارسين كبيرة عندما حاول الأنبا بيشوي إنقاذ نفسه وإنقاذ الأنبا شنودة معه بتبني هذا التمييز، من أجل إنكار الشركة في الطبيعة الإلهية!!!

إن أقل ما توصف به هذه المحاولة أنها عبث؛ لأن أي قرار مثل هذا كان يجب أن يكون قراراً مجمعياً يستند على التاريخ والقانون واللاهوت، وليس على اصطياد نص من هنا ونص من هناك.

ثالثاً: هكذا أصبحت الكنيسة مسرحاً هزلياً يعتلي خشبته كل من كان قادراً على ارتداء الزي الكهنوتي وإلقاء الخطب وحشد الغوغاء والدهماء. مسرح تقدمه"مجلة الكرازة"، توزع فيه الأدوار حسب القدرة على الإلقاء بلا نص وبلا مضمون، وهكذا عشنا مع مسرحيات هابطة طوال ربع قرن من الزمان.

ويبقى السؤال الجوهري، بعد كل ما قدمناه:

أين البدعة؟ هل هي في عدد الأسرار؟ هل لأن العدد زاد على سبعة عند الأريوباغي، ولأن الأب متى المسكين عاد إلى التراث الآبائي واعتبر أن غسل الأرجل هو "سر" إخلاء الذات. هل هذه بدعة؟!!!

وأين الحداثة إذا كان الموضوع مطروح عبر التاريخ الكنسي في الشرق الأرثوذكسي والغرب الكاثوليكي؟

وهل هي بدعة حقاً؟ أليست البدعة هي إنكار أحد جوانب الإيمان الخاص بالثالوث، ولاهوت الابن وتجسده ولاهوت الروح القدس. الخ كما نعرف من تاريخ الكنيسة.

فهل كان الاختلاف على عدد الأسرار بدعة؟ ومن الذي حكم على هذه البدعة؟ كتاب "بدع حديثة" وحده الذي لا يعرف مؤلفه التاريخ الكنسي، ثم يجلس على منصة القضاء لكي يحكم بلا مرجعية وبلا أي سند من التاريخ أو الآباء.

شيطان الغرب مرة أخرى

عندما ينقل الأنبا شنودة ومعه الأنبا بيشوي – عن جهل أو عن معرفة – من كتاب "علم اللاهوت" كما أشرنا من قبل، ويجعل تعليم الكنيسة المشيخية هو "قانون الأرثوذكسية"، ومن يشذ عنه يكون "هرطوقياً". أليست هذه مسرحية أكثر من هابطة، أوليس هذا تعليم الغرب الذي جاء إلينا مع الإرساليات؟

فمن هو الأرثوذكسي الحقيقي هنا؟

ثم نعود ونقول مرة ثانية هل تحققت زعامة الأنبا شنودة الروحية؟

أبداً، بل سوف تظل كتب الآباء، ودراسات الأب متى المسكين والدراسات التي سوف تصدر بعد ذلك، هي المرجعية التي سوف يتمسك بها الجيل الآتي. وسوف تذوب كتب الأنبا شنودة في أمواج النسيان، ومعه كل الذين وقفوا ضد تعليم الأرثوذكسية، الذي نسمعه كلما سمعت صلوات الكنيسة.

لمصلحة مَن حدث كل هذا؟

لمصلحة مَن إهالة تراب الشتائم على الدراسات التي نشرت؟ ألأنها تكشف عن جهل البعض؟ ولذلك حرصوا على بث الرعب والخوف في نفوس الدارسين.

هل هي جولة تسبق انتخابات البطريرك الجديد؟ أم هي محاولة لإبعاد الكنيسة القبطية عن الأرثوذكسية الحقيقية، من أجل حفنة من الأساقفة نشأوا على كتب متى هنري وسبرجن وغيره، في الوقت الذي انكشفت فيه "عوراتهم"، وظن هؤلاء أن "ستر العورة" هو بالقضاء على تعليم الآباء وعلى ما سجله التاريخ.

هذه أسئلة نطرحها أمام الجيل الآتي، علَّ الزمن يكون كفيلاً بإزاحة الستار عن أجوبتها.

لكننا نرى أن خلف كل هذا تبرز الحقيقة التي أشرنا إليها من قبل، وهي ليست فقط انعدام "المرجعية"، بل إلى جوار ذلك عدم جود مؤسسات خاصة بالتعليم – القانون – وعدم الأمانة على النظام المالي، وهو ما يعني حلول الأشخاص محل المؤسسات، لكي يبقي لدي الأشخاص السلطان المطلق.

وإذا كانت "السلطة المطلقة مفسدة مطلقة"، فإن هذا الفساد المطلق سيظل جاثماً حتى تظهر هذه المؤسسات، وحتى تجرف المعرفة أكوام الجهل وزبالة التراث الشعبي السائد الذي لا ينتمي أصلاً إلى المسيحية مثل "الشرب من ماء غسل الأواني المقدسة بعد التقديس، أو التهافت على رش الماء بعد القداس، وغيرها من ممارسات شعبية لا تغرس الشعب في سرّ المسيح ولا في حياة الثالوث، ولا تؤهل أي إنسان إلى أدراك أعظم لمعرفة واستنارة أكبر.

وأخيراً

لعل ديونسيوس الأريوباغي كان على خطأ عندما زاد عدد الأسرار لكي يضم الرهبنة والجناز ثم غسل الأرجل ....، ولعل طقس اللقان كان أيضاً خطأ و"شططاً عقائدياً" أو "انحرافاً في التعليم"!!!

بقيت كلمة أخيرة، نؤكد فيها على أن الطغاة يمضون وإن بقيت جراح الشعب. وأن التاريخ لا بد وأن يقدم البلسم الشافي لكل المجروحين؛ لأن أجيالاً سوف تأتي وتحكم بالحق كلما سمع شعب الكنيسة تحليل الخدام، وكلما عطشوا لمعرفة ما سلَّمه لنا آباء تحليل الخدام.

جورج حبيب بباوي

القاهرة

إبريل ٢٠٠٩

د. جورج بباوى لا يعترف بالطهارة الجسدية ويشكك فى قوانين الكنيسة وبعض كبار الآباء

الدكتور جورج حبيب بباوى له ماضٍ طويل فى الاستهانة بطهارة الجسد. وكان أول ما نشره عن ذلك سنة ١٩٨٠ **فى مقال طويل فى** كتاب نشره له مجلس كنائس الشرق الأوسط (من ص ٩٥ إلى ص ١٧٤) وعنوان ذلك الكتاب: (المرأة فى اللاهوت الكنسى)، وأعاد نفس الكلام كما هو فى كتاب نشره هذا العام وعنوانه [التطهير]. أى أن له نفس الفكر على مدى ٢٧ عاماً، وربما أكثر من هذه المدة، إن كان بنفس الفكر قبل طبعه فى كتب.

وهو فى كل ذلك يجامل المرأة الطامث والرجل المحتلم.

ويرى إن إفرازات الجسد فى كليهما لا تؤثر إطلاقاً على طهارة الجسد، إستناداً إلى أن الاهتمام هو بطهارة الروح، ولا أهمية للاغتسال، يكفى ما سبق من اغتسال فى المعمودية.

ويرى أنه حتى المعاشرة الزوجية، ما كانت تمنع من التناول فى العصور الأولى، ولا كان تناول الطعام يمنع.

ولما واجهته فى ذلك تعاليم الكتاب فى العهد القديم، وكذلك ما ورد فى قوانين الكنيسة وفى أقوال الآباء بهذا الخصوص، **حارب الناموس، وحارب القوانين الكنسية، وأقوال الآباء الكبار، وشكّك فى كل ذلك.**

وحارب أيضاً ما ورد فى كتاب التعميد عن تطهير المرأة.

وهاجم أيضاً المقالات التى نُشرت فى مجلة مدارس الأحد سنة ١٩٥٢ وما نُشر فى جريدة وطنى سنة ١٩٧٩ بهذا الخصوص (وهى من كتابات المتنيح الأنبا إغريغوريوس [أنظر مقاله فى كتاب المرأة فى اللاهوت الكنسى ص ١٧١. ونفس الكلام فى كتابه: التطهير].

وحتى ما ورد فى إنجيل لوقا (٢: ٢٢) عن السيدة العذراء "ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى"... حاول د. جورج أن يتهرب من هذه الآية بتفسير ذكره لأوريجانوس فى تشويه للفكر، بأن ذلك التطهير يشمل العذراء والسيد المسيح معاً بعبارات بشعة يأنف منها الفكر فائلاً "كل نفس تلبس جسداً تتدنس، ويسوع أيضاً تدنس ولكن بإرادته الحرة"!! ومؤيداً الفكر بما ورد فى سفر أيوب (١٤: ١٤): "لا يوجد أحد بلا دنس ولو كانت حياته يوماً واحداً" كأن ما ينطبق على أى إنسان عادى ينطبق على السيد المسيح له المجد" [أنظر ص ١٤١ من كتابه].

إلى هذا الحد وصل د. جورج بباوى فى تفكيره وفى اقتباساته دون أن يخجل أو يخاف مما يكتبه!! حتى لو اقتبس كلاماً خاطئاً من غيره، من المفروض أن يفنده. ولكنه لم يفعل ذلك..

كذلك بدأ يشكك فى وراثة الخطية الأصلية، مما سننشر عنه مقالاً خاصاً إن شاء الله...

* * *

وهنا أورد ما كتبه د. جورج بالحرف الواحد:

• قال "لا توجد تشريعات قانونية خاصة بطهارة الجسد فى القوانين القديمة على الإطلاق" [ص ١١٦ من كتاب المرأة، وص ٢٢ من كتاب التطهير]. **وإذ شعر بأن هذا الكلام غير حقيقى، قال "لعل المشكلة الرئيسية التى نحن بصددها هى التضارب والتناقض الذى سوف نراه فيما يسمى بالقوانين الكنسية"!!**

وأنا متعجب كيف يصدر هذا الكلام من شخص أرثوذكسى يحترم التقاليد والقوانين الكنسية، ويكرر كلامه على مدى ٢٧ عاماً!!. ولكنه لا يحترم قوانين الكنيسة، بل يعتبرها موضوعاً للنقد لذلك يتابع كلامه فيقول "مشكلة أخرى هامة، وهى أنه لم ينشأ لدينا حساسية النقد للقانون الكنسى، وامتحانه فى ضوء العقيدة نفسها وهى الأصل"!! لاشك أن ما يقصده بحساسية النقد هى ما وصل إليه فى دراسته فى بلد غير أرثوذكسى "لا ينتقد فقط قوانين الكنيسة، بل أيضاً الكتاب المقدس فيما يسمونه Biblical Criticism.

* * *

وهو يقول [فى ص ١١٧ من كتاب المرأة، وفى ص ٢٢ من كتابه عن التطهير]:

"لا المعاشرة الزوجية، ولا حتى الانقطاع عن الطعام، صار قاعدة تمنع التناول إلا بعد القرن الخامس".

وهذا الكلام ليس صحيحاً، ولا يستطيع أن يثبته تاريخياً ولا طقسياً. بل إنه فى العهد القديم، حينما أراد الله أن يقدم الوصايا العشر – فحسب أمر الرب لموسى النبى – "قدّس موسى الشعب، وغسلوا ثيابهم. وقال للشعب: كونوا مستعدين إلى اليوم الثالث "لا تقربوا إمرأة" (خر١٩: ١٤، ١٥). فإن كان ذلك الأمر لمجرد سماع الوصايا، فكم بالأولى التناول من الأسرار المقدسة؟!

•ويعلّق د. جورج على ما ورد فى سفر اللاويين (١٥: ١٨) "المرأة التى يضطجع معها رجل.. يستحمان بماء ويكونان نجسين حتى المساء" [على الأقل فى العهد الجديد لا يعتبران صائمين]. فيقول د. جورج "المعمودية هى الاغتسال الوحيد الذى يطهّر الإنسان فى العهد الجديد" "وقيمة المعمودية فى الاغتسال أزال كل اغتسالات العهد القديم" (ص ١١٨، ١١٩، ص ٢٣).

ويضيف "ونحن نأخذ اغتسال المعمودية مرة واحدة، ونتطهر بالروح القدس مرة واحدة تطهيراً أبدياً".

فهل يعنى د. جورج أن المرأة تذهب للتناول وهى فى طمثها دون أن تغتسل؟! وأن الرجل – فى إفرازاته المنوية – يذهب للتناول، دون أن يغتسل، اعتماداً على الاغتسال فى المعمودية؟! إن هذا أمر نشاز لا يقبله المنطق ولا تقاليد الكنيسة. ولكنها أفكار غريبة ينشرها..

ولكن د. جورج يقول في (ص ١٢٣، ١٢٤ من كتاب المرأة، وفي ص ٢٧ من كتابه عن التطهير": "أخبرني يا صديقي المحبوب والتقي: ما هي الخطية أو الدنس في الإفرازات الطبيعية". ويقول "**الإفراز** الزائد الذي تطرده القنوات المنوية. ما هي الخطية. أخبرني من أجل الله أيها الشيخ المحبوب من الله: إن كان السيد الذي **صنع الجسد هو** الذي شاء وخلق هذه القنوات التي تفرز هذه الإفرازات.."

والعجيب أنه يستند على الآية التي تقول "كل شئ طاهر للطاهرين" (تي١: ١٥). فهل الطمث شئ طاهر؟ ألم تقرأ ما ورد في الكتاب عن نجاسة الطامث" (حز٣٦: ١٧)؟ أما عبارة "كل شئ طاهر للطاهرين" فليس هذا مجالها. ويحتاج الأمر أن نفسرها لك لئلا تأخذها بمعنى مطلق...

أما من جهة ما ورد في الناموس الذي علّمه الرب لموسى النبي بهذا الخصوص، فإن د. جورج يقول "**الناموس كله مرفوض.. الناموس كله قد ألغى تماماً**" [ص ١٢٩ من كتاب المرأة، وص ٢٧ من كتابه عن التطهير]. يقول هذا وينسى ما قاله الرب "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض، بل لأكمل" (مت٥: ١٧). وكذلك قول القديس بولس الرسول: "ولكننا نعلم أن الناموس صالح. إن كان أحد يستعمله ناموسياً" (١تي١: ٨). ولكن فكرة (إلغاء الناموس) ليست لجورج بباوي وحده، بل أنتقلت إلى آخرين أيضاً، وليس الآن مجال الرد عليها. ولكنها بدعة...

✠ ✠ ✠

يقول د. جورج عن القوانين الكنسية "**هذه القوانين تخلو تماماً من أي كلام أو إشارة إلى تطهير الجسد كشرط لازم للتناول من الأسرار المقدسة**" (ص ١١٨، ١١٩ من كتاب المرأة، وص ٢٣ من كتابه عن التطهير). إن طهارة الجسد قبل التناول كانت أمراً بديهياً لا يحتاج إلى سن قانون جديد. ومع ذلك توجد قوانين كثيرة لا تتفق معها عبارة "تخلو تماماً". وجورج يعرف بعض هذه القوانين فيقول (في ص ١١٧ من كتاب المرأة، وص ٢٢ من كتاب التطهير): "بالحصر الشديد، لا مجال لتشريعات كنسية عن طهارة الجسد، إلا فيما يُنسب إلى ديونسيوس الإسكندري وتيموثاوس الإسكندري، وفي الألف الثانية لكيرلس بن لقلق". فهل يستهين بأولئك الباباوات؟!

إن القديس ديونسيوس (البابا ١٤) كان من علماء الكنيسة في عصره، وكان أستاذاً للكلية الإكليريكية. والقديس تيموثاوس (البابا ٢٢): لما ذهب لحضور مجمع القسطنطينية المسكوني سنة ٣٨١م سألوه أسئلة، فاعتبرت إجاباته قوانين كنسية للكنيسة الجامعة الرسولية كلها [أنظر الجزء ١٤ من كتابات آباء نيقية وما بعد نيقية].

أما ما أسماه قوانين كيرلس بن لقلق، فلم تصدر من فرد واحد بل من المجمع المقدس وقتذاك، وهو مجمع هام حضره مع البابا كيرلس بن لقلق، القديس العلامة الأنبا بولس البوشي.

ولكن د. جورج كما يستهين بقوانين كيرلس بن لقلق، فإنه يهاجم تعليم القديس تيموثاوس، فيقول (في ص ١٧١ من كتاب المرأة): "الإجابات القانونية لتيموثاوس الإسكندري هي إجابات غير معروفة في جوامع القوانين القديمة، ولا تظهر في المجموع الصفوي لابن العسال (ناسياً أخطاء ابن العسال) أو في أقدم جامع للقوانين وهو فقه النصرانية لأبي الفرج بن الطيب. ومع ذلك لا يمكن أن نقول إن عدم سماح البطريرك تيموثاوس الإسكندري للنساء بالمناولة هو قاعدة جديدة في الشرع الكنسي القديم، بل هي ضد روح الإنجيل والدسقولية" (ص ١٧١ من كتاب المرأة).

عجيب أن د. جورج يقول إن تعليم القديس تيموثاوس البابا الإسكندري ضد تعليم الإنجيل، وهو يفخر باستمرار باحترامه لأقوال الآباء..!!

ولا يكتفي بهذا، بل يقول إن القانون ٣٨ للقديس أبوليدس Hippolytis هو قانون مزور (ص ١٧١). والمعروف أن قوانين أبوليدس هي اختصار لقوانين الآباء الرسل! ويقول جورج عن هذا القانون لأبوليدس إنه منسوب زوراً إليه وأنه "قد دسّه ابن العسال في كتابه المجموع الصفوي الباب الثالث وعنه أخذ كل الذين كتبوا في العصر الحديث" (ص ١٦٦).

✠ ✠ ✠

هو أيضاً (في ص ١٦١ من كتاب المرأة)، يهاجم القديس أوغسطينوس في الغرب والقديس ديديموس في الشرق.. ويقول "إن ديديموس جمع بين الإفلاطونية والمانوية معاً "(ص١٦١). وذلك من مهاجمته للأفلاطونية في أصل الروح.

وينسى جورج أن القديس ديديموس الضرير كان أستاذ ورئيس الإكليريكية في أيام القديس أثناسيوس الرسولي. فهل إلى هذا الحد يتكلم عن القديسين الكبار ويهاجمهم، بينما يتحدث عن أهمية الرجوع إلى (أقوال الآباء)؟!!

✠ ✠ ✠

أما عن التشكيك في القوانين الكنسية بصفة عامة:

فإنه يقول في كتاب المرأة في اللاهوت الكنسي ص ١١٥، ١١٦، وفي كتابه التطهير ص ٢١:

"ليس لدينا تعليم عقيدي بشأن القوانين الكنسية، أي ما يجب أن نقبله، أو ما يجب أن نرفضه".

ويقول أيضاً "لم ينشأ نظام قانوني يفصل في أهمية القوانين الكنسية" "ولعل المشكلة الرئيسية التي نحن بصددها، هو التضارب والتناقض الذي سوف نراه فيما يسمى بالقوانين الكنسية".

كلها ألفاظ تدل على عدم إحترام للقوانين الكنسية. فهي في نظره فيها تناقض وتضارب، وفيها ما يجب رفضه، وما يجب تغييره... أما عن قوانين الآباء الكبار، فإنه يقول "إنها لم توضع في مجامع مسكونية أو مكانية، وإنما كانت لازمة في الظروف التي سادت الكنيسة.."

وهكذا نرى أن شكوكاً تحيط به من جهة أهمية القوانين الكنسية أو "ما يسمى بالقوانين الكنسية" حسب تعبيره. وهو يريد أن يصب هذه الشكوك في أذهان غيره!! لأن القوانين تحتاج إلى "حساسية للنقد" كما يقول!

"قبل الكسر الكبرياء وقبل السقوط تشامخ الروح"
(أم ١٦: ١٨)

عدد مجلة الكرازة السنة ٣٥ العددان ٣٧، ٣٨ الصادر في نوفمبر ٢٠٠٧ ص ١٢، ١٣

د. جورج حَبيب بباوى يُهاجم الفـدَاء والكفّارة

الفداء والكفارة عقيدة من أهم خصائص المسيحية، تؤمن بها كل كنائس العالم. ومن يهاجمها أو يشكك فيها، إنما يهاجم المسيحية ذاتها... ويشكك فى الإيمان المسيحى كما يشرحه الكتاب المقدس بعهديه.. ومن أجل الفداء والكفارة تجسد السيد المسيح وصُلب..

فما معنى الفداء؟ معناه أن نفس تموت عوضاً عن غيرها..

وهذا ما علّمه الله للبشرية منذ البدء فى الذبائح والمحرقات.

لقد قدّم هابيل البار محرقة من أبكار غنمه ومن سمانها (تك٤: ٤). ونعلم عرف ذلك من أبيه آدم أو من الله مباشرة. وأبونا نوح – بعد رسو الفلك أصعد محرقات من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة (تك٨: ٢٠). وأيوب الصديق قدّم محرقات على عدد أولاده قائلاً: ربما أخطأ بنىّ" (أى١: ٥). وإبراهيم أبو الآباء قدّم محرقة (تك٢٢: ١٣). وهكذا أيضاً باقى الآباء.. ثم وضع الله شرائع الذبائح والمحرقات فى سفر اللاويين..

فماذا كانت المعانى الروحية فى تقديم الذبائح؟

✠ ✠ ✠

• أول شئ عرفته البشرية أن عقوبة الخطية هى الموت.

هكذا قال الرب لآدم عن معصيته "موتاً تموت" (تك٢: ١٧). وهكذا ورد فى سفر حزقيال النبى "النفس التى تخطئ، هى تموت" (حز١٨: ٢٠). وورد فى العهد الجديد "أجرة الخطية هى موت" (رو٦: ٢٣).

وبسبب هذا كان الإنسان الخاطئ – حينما يقدم ذبيحة – يعلم تماماً أنه كان يستحق الموت بسبب خطيئته. ولكن ذلك الحيوان البرئ الذى تم ذبحه، إنما مات بدلاً منه، أو فداءً مؤقتاً له.

• وكانت كل تلك الذبائح ترمز إلى موت السيد المسيح نيابة عنا. ومثال ذلك خروف الفصح الذى كان يُذبح كفريضة سنوية، والذى قال عنه الرب "يكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم" (خر١٢: ١٣). خروف الفصح هذا كان رمزاً للسيد المسيح، فيقول الكتاب كان بديلاً عنا فى حكم الموت الذى هو ثمن خطايانا...

✠ ✠ ✠

ولكن الدكتور جورج حبيب بباوى ينكر موضوع ثمن الخطية الذى دفعه السيد المسيح له المجد، وينكر عقيدة البديل أى السيد المسيح مات بدلاً منا. ويسخر من كل ذلك ويتهكم. وينكر عقيدة الكفارة والفداء كما نفهمها جميعاً. وينقل إلى القراء أفكاراً غريبة قرأها من بعض كتب الغرب، وبخاصة كتاب عن الكفارة مؤلفه هو L.W. Grensted واسمه:

A Short History of the Doctrine of the Atorement. 1926

ويدعى أن أفكاره هى التعليم السليم!

ثم يتهم الكنيسة القبطية بالذات بالخروج على التعليم المسيحى وعلى تراث الآباء! ويقول إن الكنيسة أتبعت أفكار لوثر وكالفن (مؤسسى البروتستانتية) وأن الأفكار البروتستانتية التى تستخدمها الكنيسة القبطية، وصلت إليها عن طريق الإرساليات الأجنبية فى القرن ١٨ وانتشرت فى القرن ١٩، وكانت لها مطبوعات.

✠ ✠ ✠

ويعتقد د. جورج بباوى أن الصليب هو مجرد علامة حب.

وهو فى كل هذا يقوم بمحاربة مبدأ العقوبة عموماً، ومحاربة موضوع العدل الإلهى، وترضية العدل الإلهى. ويقول إن الله لا يغضب..

ولا يعتقد إطلاقاً بنقل الخطايا إلى حساب السيد المسيح، ولا يعتقد بالخطية الأصلية. وعموماً هو ضد عقيدة الفداء والكفارة، وضد استحقاقات دم المسيح، وضد تطبيق رموز العهد القديم على المسيح.

وفى كتاباته لا يتبع أمانة البحث العلمى وأمانته نحو القارئ. وما أسهل أن يكرر عبارة "لا توجد آية واحدة فى الكتاب المقدس عن.." أو "لا توجد إشارة فى كل أقوال الآباء شرقاً وغرباً.." كل ذلك لكى يثبت أفكاراً له غير مقبولة..

✠ ✠ ✠

وغالبية الأفكار التى ذكرها، نشرها فى كتاب اسمه "موت المسيح على الصليب". وهو كتاب نُشر فى الإنترنت من حوالى ٧٠٠ صفحة.

وهنا أحب أن أقول لكم قاعدة هامة: وهى أن أهمية أى كتاب ليست فى حجم الكتاب، إنما فى مقدار الفائدة التى يحصل عليها القارئ منه. وربما كتاب كبير الحجم لا يقدم فائدة تناسب حجمه، أو قد يقود إلى شكوك أو بدع، بحيث يقول القارئ عنه: ليتنى ما قرأت..

وسأحاول فى هذا المقال أن أعرض لأخطاء د. جورج واحدة فواحدة وأرد عليها. أو على وجه أصح لبعض أخطائه، لأن عرض الجميع لا يتسع له هذا المقال، ولا عدة مقالات...

✠ ✠ ✠

إنه يقول فى ص ٤٣، ص ٤٤ من كتابه المذكور:

"الأرثوذكسية تؤكد لنا أن كل من يؤمن بالرب الواحد يسوع المسيح، وبالخلاص التى أتمه عنا بتجسده وموته وقيامته وصعوده، فهو مسيحى أرثوذكسى، طالما كان لا يستخدم كلمات الكفارة والفداء والفدية بنفس المعنى السائد فى فكر هذا البعض من الكتّاب الذين قصروا – خطأ وعسفاً – الأرثوذكسية فيما يعلمون. فكما قلنا إن هذا الشرح ينتمى تاريخياً إلى لاهوت العصر الوسيط وحركة الإصلاح..".

لذلك كان الهاجس الأكبر الذى ألح علينا فى هذه الدراسة هو غياب (المعنى البروتستانتى) لموضوع الكفارة والفداء والفدية – "أى الصلوات الليتورجية القبطية.." لماذا لم تذكر صلواتنا المقدسة الأرثوذكسية هذا التعليم عن عقيدة الكفارة والفداء والفدية فى القداسات..".

عدد مجلة الكرازة الصادر يوم الجمعة ٢٠٠٧/٥/٢٥